بنية الخطاب النفسي في نهج البلاغة

د. كريم حسين ناصح الخالدي
كلية التربية للبنات - متقاعد

الملخص
البحث دراسة أسلوبية معاصرة في النص المعبّر عن المعاني النفسية في نهج البلاغة . يتوزع البحث على ثلاثة مباحث :
الأول : خصائص النصّ النفسي : يدرس قوة التأثير في المخاطب ، ببيان أنّ قوة تأثير النصّ ترتبط بعمق التأثر والانفعال في نفس الباثّ ، واستجابته لمؤثرات عنيفة تهزّ مشاعره،وتحرّك كوامنها فتنطلق الألفاظ بحيوية مؤثرة متجانسة مع عنف التأثر وشدّته فمن غضب الإمام أو حزنه أو حبّه للحق وكرهه للباطل والإنحراف عن الإسلام تشحن الألفاظ بالعاطفة ومنها
١- الاختزال في الألفاظ والاتساع في المعنى عن طريق الإيحاء بالمعنى المقصود.
٢- الاتساق والانسجام : يوضح العلاقات بين الألفاظ وأشكال الاتساق .
٣- التجانس بين مكونات الجملة،لتوضيح تقارب الألفاظ بعضها من بعض،وتعلّق بعضها ببعض بروابط نحويّة وتكوينيّة .
٤- التداخل النصي بين القرآن الكريم ونهج البلاغة في تلك النصوص .
الثاني :علاقات التماسك في النص القرآني سواء بين ألفاظه أم بين جمله ، وأهم الروابط : حروف العطف ، وأسماء الوصل ، والربط بتغيّر المعاني ، والربط بالضمائر ، ، والربط بأسماء الإشارة ، والربط بالتكرار .
الثالث : الظواهر البنيوية في النصّ النفسيّ، وتشمل : التفصيل ،في المعنى ، أو الامتداد البنيوي للجمل ، والتكرار ، والتتابع ، والتنويع في أبنية التراكيب ، والمطابقة والمخالفة .وهي ظواهر شائعة في نصوص نهج البلاغة.

Psychological Speech Structure in Nahj Al-Balaghah

Kareem Hussein Nasih Al-Khalidy
College of Education for Women - Retired

Summary
The research is a contemporary stylistic study of the text that expresses the psychological meanings in Nahj Al-Balaghah.
The research is divided to three chapters.
The first chapter : characteristics of psychological text.
It is about the power to influence the addressee ,that is to say ,the text influence power connects with vulnerability and emotions inside the addressee spirit and his response to violent effects shaking his feelings and that is represented in outbreaking of words vitality and homogeneously. The Imam's wrath , grief , love to rightness , hatred of falsehood and deviation from Islam arouses the words and emotions through :
1. Reduction in words and expansion in meaning by means of inspiration of the intentional meaning.
2. Consistency and coherence: illustrates the connection between words and forms of consistency.
3. Homogeneity between the components of the sentence to illustrate the closeness and attachment of words by formatives and grammatical links.
4. Script overlap between The Holy Quran and Nahj Al-Balaghah in those texts.
The second chapter : coherence in The Holy Quran text whether among It's words or phrases . The most important links are : conjunctions , conductive names , linking by meaning change , linking by pronouns , linking by demonstrative pronouns and linking by repetition.
The third chapter : structural phenomena in psychological text which consist : elaboration and detailing in meaning or structural expansion of the the sentences , repetition , sequence , diversification in syntax composition , conformity and violation. All these phenomena are common in the texts of Nahj Al-Balaghah.

بين يدى البحث :

ليس من السهل التصدي لموضوع ترتجف فرائص من يتصدى لمجرد التفكير فيه لأن دراسة هذا الخطاب يفرض التفكير في ما كان يعتري شخصية رجل عظيم مثل الإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام _ الذي حارت العلماء في فهم مكنون شخصيته التي لا تناظرها شخصية سوى شخصية معلمه وابن عمه وملهمه ومربّيه نبي الهدى محمد - صلّى الله عليه وآله وسلم - إذ تكاد كثير من خصائص شخصية الإمام علي عليه السلام تقترب من شخصية النبيّ ،كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم في آية المباهلة {فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم } (آل عمران ٦١) ولايمكن لأيّ باحث أن يستجلي خصائص الشخصيتين أو الإلمام بملامحهما لأنّ النبي - صلى الله عليه وآله - قد اصطفاه الله من بين البشر كافة ورعاه واصطنعه على عينه وأعدّه ليحمل رسالته إلى العالم في كل الأزمنة والعصور فكان نسيج وحده ، وكان الإمام علي قد فتح عينيه ليرى النبي القدوة والمثال المحتذى في كل شيء كما قال الإمام عن نفسه " ولقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثرَ أمّه يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه عَلَماً ويأمرني بالإقتداء به " (١) فتربى الإمام عليه السلام في حجر صاحب الرسالة كما قال عن نفسه " وضعني في حجره وأنا ولد يضمّني إلى صدره ، ويكنفني إلى فراشه ،ويُمسّني جسده ،ويشمني عَرفه "(٢)و لم يتخلق الإمام - عليه السلام - بخلق مجتمعه ولم يتعلّم عادات من يحيطون به من أفراد المجتمع الجاهلي ، ولم يتثقف بثقافة الجاهلية ولم يكتسب من عاداتها ولم يعلق في تفكيره شيء من مفرداتها بل عاش الوحي وحفظ القرآن واستلهم روح الإسلام وتغلغل الإيمان في عروقه ، وسرى العرفان في خلاياه فكان سماوياً في تفكيره وخلقه وعقيدته ومشاعره وأحاسيسه وكلّ مكونات شخصيته ، وكان في قتاله الكافرين والناكثين والمنافقين بطلاً خارقاً لأنّ تفكيره في الموت والحياة كان سماوياً ، وكان في حكمه عادلاً عدلاً أراده الله أن يسود البلاد الإسلامية ، وكان إيمانه بالله قد بلغ اليقين فما عاد كغيره من الناس ، وكان يريد للمجتمع الإسلامي أن يتخطى أدران الجاهلية ليرقى إلى درجة المجتمع الأمثل ، وقد وضعه ذلك في صراع مع الذين يعيشون الدنيا بأدرانها الجاهلية وبراقعها الإسلامية ومن هذا الصراع بين الإيمان والنفاق اتضحت لي ملامح شخصية الإمام علي عليه السلام وأدركت ما كانت تعبّر عنه نصوصه من معان تعرب عن ملامح خطابه النفسي .

المبحث الأوّل :خصائص النصّ النفسيّ

لاشك في أن نصوص نهج البلاغة تتميز بخواص فريدة اكتسبتها من شخصية الإمام الإجتماعية والثقافية والروحية ومكونات شخصيته المبنية على ظروفه في مسيرة حياته من طفولته حتى لحظات خلق النص ، وطبيعة المواقف المثيرة التي أدت إلى صياغة خاصة تتُلاءم وتلك المواقف فضلاً عن عوامل اخرى يفرضها المقام والحال وما يحيط بالحدث ، لذا جاءت نصوص نهج البلاغة المعبّرة عن الحالات النفسية تزخر بخصائص تتماثل وخصائص أسلوب الإمام علي في سائر نصوصه الأخرى وهو الذي اشتهر بفصاحته وبلاغته وقدرته على تأليف الكلام بصور إئتلافية متنوعة ومتناسقة تختزل المعاني تصريحاً وكناية .وأهم تلك الخصائص:

١ - قوة التأثير في المخاطب :

ترتبط قوة تأثير النص بعمق التأثر والإنفعال في نفس البا ث ، واستجابته لمؤثرات عنيفة تهز مشاعره ،وتحرك كوامن مشاعره فتنطلق الألفاظ بحيوية مؤثرة متجانسة مع عنف التأثر وشدته " ويحدد السياق العاطفي أيضاً درجة الإنفعال قوةً وضعفاً ، إذ تُنتقى الكلمات ذات الشحنة التعبيرية القوية حين الحديث عن أمر فيه غضب وشدة انفعال" . (٣) لذا كانت الجمل المعبّرة عن غضب الإمام أو حزنه أو تقريعه وتوبيخه ، أو حبه لله ورسوله والمتقين والمؤمنين ، أو كرهه للباطل والإنحراف عن الإسلام ، حافلة بالألفاظ المشحونة بالعاطفة ،فلقد ورد جلّ مؤثرة تم على عق المشعور با لحن و الألم كقوله عليه السلام : "يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال ، لوددت أنّي لم أركم ، ولم أعرفكم ، معرفة و الله جرّت ندماً ، وأعقبت سدماً ، قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبي قيحاً ، وشحنتم صدري غيظاً ، وجرّعتموني نغَب التهمام أنفاساً وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان " (٤) فقوله " يا أشباه الرجال ولا رجال" تحمل دلالات نفسية ترتبط بانزعاجه من كثرة ما ماطلوا في الإنخراط في صفوف المجاهدين ، وكثرة ما كانوا يتعللون به من حجج لتأجيل القتال من الصيف إلى الشتاء ، ومن الشتاء إلى الصيف وغير ذلك مما آذى الإمام - عليه السلام - وأدمى قلبه حتى قال " قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً " ولو ربطنا السبب بالمسبّب ، لأدركنا قصد الإمام عليه السلام حين يوبخ الرجال المتخاذلين بقوله (يا أشباه الرجال ولا رجال) وكلّ من يسمع هذا الكلام يُطأطئ راسه خجلاً من قوة أثر هذه العبارة العنيفة إذا ما عدنا إلى زمن الحدث ، حيث كان الرجل منهم يفاخر برجولته وشجاعته وفروسيته ، وعلمنا أنّ قائل ذلك هو أشجع الشجعان طرّا ، وهو الذي كان في أول المجاهدين في سبيل الله في أشد المعارك قسوة وعنفاً ، فكانت هذه الألفاظ كالسياط تلسع أجسادهم ولاسيما قوله " ولا رجال " أي أنكم بتهربكم من الجهاد كأنكم نساء تحتمون ببيوتكم وتلوذون بغيركم فأين رجولتكم وأين فروسيتكم التي تدّعون.

وحين يتمادى معاوية بن أبي سفيان في غيّه ويبالغ في جداله وادعائه مالا حق له فيه ويهدد الأمام - عليه السلام - ينفجر غضب الإمام في عبارات مؤثرة قاسية في تأنيب معاوية إذ يقول عليه السلام بفروسيّة ورجولة أبي الحسن " وقد دعوت إلى الحرب فدع الناسَ جانباً واخرج إليّ وأعفِ الفريقين من القتال ليُعلَم أيّنا المرينُ على قلبه والمغطّى على بصره فأنا أبو حسنٍ قاتلُ جدّك وخالك واخيك شدْخاً يوم بدر ، وذلك السيف معي ، وبذلك القلب القى عدوّي ، وما استبدلتُ ديناً

ولااستحدثتُ نبيّاً ، وإنّي لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم فيه مكرهين "(٥) فانظر إلى قوة التأثير التي تزخر بها عبارات الإمام عليه السلام (فاخرج إليّ) (فأنا أبو حسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخاً) (وذلك السيف معي)(وبذلك القلب ألقى عدويّ) (وإنّي لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم فيه كارهين) عبارات تجلد من يخاطبه بأقسى السياط ، يتحداه بقوة الفرسان ، ويدخل الرعب في قلبه ، بما يذكّره به من قتل جده وخاله وأخيه ، في أول معركة خاضها المجاهدون المسلمون، وكان أبو الحسن إذ ذاك فتى في مقتبل العمر، فقتل مَن قتل حتى هُزم جيش المشركين ، فما الذي تحدثه مقولة مثل هذه تصدر من بطل همام عرفت صولاته في نفس معاوية وهو يسمع (فأنا أبو حسن) وهو يعرف من هو أبو حسن ويعرف شهرة ذلك السيف الذي يلوح بريقه في مثار النقع فيسمع قوله(وذلك السيف معي) فهولا يهدّده بسيفه وحده ، بل يهدده بذلك القلب الذي ما خاف ولا وجل من لقاء الليوث والفرسان فيقول له : (وبذلك القلب ألقى عدوي) ، ومعاوية يعلم أيّ سيف بيده ،وأيّ قلب يحمل ، فكيف يستقبل هذا الخطابَ المخيفَ المرعبَ الذي يهز كلّ جارحة من جوارحه ، ويعصف بكل خلية من خلايا جسده ، ولم يكتف الخطاب المرعب بإثارة الخوف في نفسه ؛ بل انتزع كلّ ما بنى عليه ادعاءه بأحقية الخلافة والولاية، فخاطبه بلغة صارمة تقتلع جذور ذلك الإدعاء الكاذب قائلاً " وإنّي لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم فيه مكرهين "عبارات موجزة رشيقة ، ولكنها ملأى بألوان التقريع والتعرية وكشف الأقنعة عن الوجوه فالإمام يجزم مؤكداً أنه يحمل ذلك الإيمان المطلق بمنهاج الرسالة المحمديّة الذي ملأ قلبه ، وشدّ ساعده ، ففتل آباء معاوية بين يدي الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ وهو المنهاج الذي حاربه أبو سفيان ورهطه ومنهم معاوية نفسه ، وهو المنهاج الذي لم يسلكه أبوه ورهطه طائعين مؤمنين بل دخلوا في الإسلام بعد أن فتح الله للمسلمين بسيف علي ، وسيوف المجاهدين المؤمنين بهذا المنهاج الإلهي ، وقد أُكره رهط أبي سفيان على الدخول حفاظاً على أنفسهم ، وليس إيماناً بذلك المنها ج القويم فكانوا من الطلقاء ٠ وإني لأدرك أنّ أثر كلام الإمام هذا لا يقل أثراً في نفس معاوية من كلامه الذي هدده فيه بسيفه وقلبه ،لأنه يهدم كلّ ما بناه معاوية في عقول أهل الشام من كذب ودجل وادعاء ٠ وقال عليه السلام مهدداً " ولعمري لئن لم تنزع عن غيّك وشقاقك لتعرفنّهم عن قليل يطلبونك لا يكلفونك طلَبَهم في بَرّ، ولا بحر، ولا جبل ،ولا سهل ، إلا أنّه طلب يسوؤك وجدانه ،وزَوْرٌ لا يسرّك لقياته " وتظهر حدة التهديد وأثره في نفس المخاطب من ألفاظ القَسَم في قوله (لعمري) تتبعه اللام المُوَطّئة للقسم التي تفيد توكيد القسم واللام المؤكدة الداخلة في جواب القسم ونون التوكيد في(تعرفنّهم) وهذا الحشد في أدوات توكيد التهديد يثير الرعب في نفس المخاطب لأنه يدل على شدة العزم والتصميم على تحقيقه ، فكيف إذا صدر عن رجل عُرف بصدقه وثباته على المبادئ والقيم العليا ، مثل أمير المؤمنين ذي الصولات المرعبة ٠

وتدرك الأثر البالغ في عبارات أمير المؤمنين التي تقطر دماً وهو يخاطب أحد عماله وقد خانه ولم يسر على منهاجه القويم في قوله عليه السلام : " فلمّا رأيت الزمان على ابن عمّك قد كلِب والعدو قد حرب ، وأمانة الناس قد خزِيتْ، وهذه الأمّة قد فنَكتْ وشغَرَتْ قلبتَ لابن عمّك ظهر المِجَنّ، ففارقْتَه مع المفارقين ، وخذلته مع الخاذلين ، وخنته مع الخائنين ، فلا ابن عمّك آسيتَ ، ولا الأمانة أديتَ ،وكأنّك لم تكن الله تريد بجهادك، وكأنّك لم تكن على بيّنة من ربّك ، وكأنّك إنّما كنتَ تكيد هذه الأمّةَ عن دنياهم ، وتنوي غِرّتَهم عن فيئهم ، فلمّا أمْكنَتْكَ الشدةُ في خيانة الأمّة أسرعتَ الكرّةَ ، وعاجلتَ الوثبة ، واختطفتَ ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطاف الذئبِ الأزل دامية المعزى الكسيرةِ " (٦) ٠

وترى قوة التأثير في استثارة عواطف المخاطب والعودة إلى طبيعة النفس البشرية في قوله عليه السلام " فلمّا رأيت الزمان على ابن عمّك قد كلِب،والعدو قد حرب " فكأنه يعاتبه عتاب الأخ لأخيه : أفي هذا الوقت الذي تكالب فيه الأعداء على أمير المؤمنين وشنّ المتربصون بالإسلام الدوائر هجومهم على خلافته ليضعفوه ويحرّفوا الدين عن مساره ،أفي هذا الوقت تقف أنت إلى جانب أعداء الله فتسرق مال الله ، ومال الأيتام والأرامل ،وتظهر قمة التأثير في توبيخه في قوله ـ عليه السلام ـ "كأنّك ـ لا أبا لغيرك ـ حدَرتَ إلى أهلك تراثاً من أبيك وأمّك ، فسبحان الله ! أما تؤمن بالمعاد؟ أوما تخاف الحساب ؟ أيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب ، كيف تسيغ شراباً وطعاماً وانت تعلمُ أنّك تأكل حراماً وتشرب حراماً ؟" فانظر إلى قوله ـ عليه السلام " كأنك ـ لا أبا لغيرك ـ حدرت إلى أهلك تراثاً من أبيك وأمك" تجد الألفاظ تجلده بسياط التوبيخ من أين لك هذا المال؟ هل هو إرث اكتسبته من أمك وأبيك ؟ لتحدر به إلى أهلك مسروراً وكأنك كسبت مالاً حلالاً من تجارة أو بيع ؟ ألا تعلم أنه سحت حرام ؟ ثمّ يجلده بسياط أمضى وأقوى بقوله متعجباً مستغرباً "**فسبحان الله ، أما تؤمن** بالمعاد ؟ سؤال ممضّ يغور في أعماق المخاطب فإن لم تؤمن بالمعاد فلست بمسلم مؤمن ،وهل ترتضي أن تُحسب من الكافرين ؟ فإن كنت تؤمن بالمعاد فماذا ستقول لرب العالمين يوم تلقاه وظهرك ينوء بذنوب اغتصاب أموال اليتامى والأرامل ؟ ويزيد في التنكيل به بعبارات مؤثرة " أيّها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب " ولفظة (كان) في هذا القول ساحرة عجيبة السحر في أثرها في نفس المخاطب وفي استعمالها البنيوي ، فما أقساها على المخاطب وهي تسقطه من عداد ذوي الألباب في حسابات ولي الله في أرضه ،ومن يرتضي أن يكون فيما مضى من عمره ممن يعده أمير المؤمنين من ذوي الألباب الذين يفقهون القول ويحسنون الصنع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثمّ يصبح ذلك ماضياً في حساب الولي ولم يعد عنده الآن من ذوي الألباب ، وسحر(كان) عجيب في استعمال فريد فالقول في المعهود (يا من كان عندنا معدوداً من ذوي الألباب " غير أنّ الإمام عدل عنها لتكون في موقع يهز الوجدان ويثير الإنتباه لدلالة (كان) على أنك لم تعد كذلك بل صرت من غير ذوي الألباب ، وقد يعدها من لا يعرف طعم الأساليب البليغة زائدة في موقعها من الكلام لايغير وجودها وحذفها من معنى الكلام بل أرى أنّ استعمالها بهذا الوضع أعطى المعنى قوة تأثير غير اعتيادية تهز نفس من لم يعد في نظر الإمام علي ـ عليه السلام ـ من ذوي الألباب ٠

٢ ـ الإختزال في الألفاظ والإتساع في المعنى :

لعل من أبرز خصائص كلام أمير المؤمنين ـ علي ـ عليه السلام ـ هو اختزال الألفاظ ، وقدرته على إيصال أكبر قدر من المعنى بتحميله إيحاءات تجعل المخاطب يذهب في تفسيرها مذاهب كثيرة ، لاحتمال تعدد المعاني في البناء الجملي وهو في ذلك يسلك مسلك القرآن الكريم مع فارق المنشئ الذي يتفرد في القرآن عن سواه من البشر ، لكن الإمام ـ عليه السلام الذي يحمل القرآن في طيات ذاكرته تأثر كثيراً بصياغات القرآن الكريم فهو يكثر من استعمال المصادر التي تحتمل أكثر من وجه بحسب ما يقدّر المخاطب كقوله عليه السلام " لقد نقمتما عليّ يسيراً ، وأرجأتما كثيراً " (٧)فالوصفان (يسيراً) و(كثيراً) يحتملان أكثر من معنى إذ ربما أراد زمناً يسيراً أو نقماً يسيراً ، وكذلك الحال في لفظة (كثيراً) إذ تحتمل معنى زمناً كثيراً ، أو معنى (إرجاءً كثيراً) ، ومثله قوله عليه السلام " أمهلوا طويلاً ومنحوا جميلاً وحُذِّروا اليماً ووعدوا جسيماً " فكل لفظة بعد الفعل هي وصف لمقدّر يناسب المعنى المقصود.

ومن جميل اختزاله قوله لأبي موسى الأشعري وهو غاضب عليه لتثبيطه الناس عن الخروج إليه لمّا ندبهم لحرب أصحاب الجمل " فإن حقّقت فانفذْ ، وإن تفشّلْتَ فابعُدْ، وأيمُ الله لَتُؤْتيَنّ حيث أنتَ ، ولا تُتركُ حتى يُخلطَ زُبْدُكَ بخاثركَ "(٨) الرسالة تزخر بالمعاني وإن قلّت ألفاظها فالإمام ـ عليه السلام ـ دعاه في كلام سابق إلى الإستعداد لمحاربة أعداء الإسلام ، وحشد الناس لذلك ، والتأهب للقتال ، ثم شرط عليه شرطاً موجزاً بألفاظه (فإن حقّقت) أي حقّقت وأنجزت ما أمرتك بإنجازه وجواب الشرط (فانفذ) أي فاقدم أنت وجندك إلينا ، فالشرط لفظة واحدة ولكنّ خلفها معاني كثيرة ، ومتعلقات لم تذكر في الكلام وكان جواب الشرط لفظة واحدة ضمّت في طياتها معاني كثيرة ، ومثلها الجملة المعطوفة عليها (وإنْ تفشّلتَ فابعُدْ ، أي إن جبنت وضعفت وتخاذلت ولم تحشّد الناس للجهاد فابعد عن مكانك الذي أنت فيه ، وولايتك للمدينة التي أنت والٍ عليها ثمّ سلّم الولاية إلى من يخلفك فيها ، وانظر إلى تهديد الإمام عليه السلام (وأيمُ الله لتؤتينّ حيث أنت) وهذه الجملة فيها إيحاءات متشعبة فقوله (لتؤتينّ) تعني في ظاهرها ليأتينك من الجند والمجاهدين من يتولى أمرك ويعزلك من الولاية ، وتحمل معنى آخر هو ليأتينك حتفك حيث تكمن ، وتعني كذلك أنك لن ينفعك اختفاؤك فسوف تدور بك الدوائر وتخرج من جحرك الذي تكمن فيه ٠أمّا قوله (حيث أنت) فمن أدق الكلام وأوجزه إذ المعروف أنّ حيث تختص بالإضافة إلى الجمل لذا يكون الضمير (أنت) في تقدير جملة (حيث أنت كامن) ولكن الإمام ـ عليه السلام ـ أراد معنى أبعد من ذلك أي ليأتينك من يقبض عليك في أي مكان تكون فيه ،أو تهرب إليه ، والدليل على ذلك قوله في مكان آخر من الرسالة "فإن كرهتَ فتنحّ إلى غير رحبٍ ولا في نجاة "(٩) .

ثمّ تأمّل في قوله ـ عليه السلام ـ" تجهّزوا رحِمَكم اللهُ فقد نُودي فيكم بالرحيل وأقِلّوا العُرْجَة على الدنيا " (١٠) ولو تأملنا في قوله (تجهّزوا) لوجدناها مشحونة بالمعاني التي يوحي بها استعمالها ، فمن ينوي السفر إلى مكان آخر يهيئ لنفسه من الزاد والماء والملبس ما يكفيه مدة السفر لكنّ الإمام عليه السلام لا يعني زاد السفر لأن الرحيل في قوله (فقد نودي فيكم بالرحيل) لايعني السفر في الحياة الدنيا المعروف ، بل اراد الرحيل من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى في ضوء قوله تعالى { وتزودوا فإن خير الزاد التقوى } فلفظة (تجهّزوا) تعني اعملوا الصالحات وأعمال الخير بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء الفرائض كلها وبر الوالدين والإحسان لذي القربى وصلة الرحم ، وتحقيق كل ما أمر به الإسلام ، والإبتعاد عمّا نهى عنه , ولو أنعمنا النظر في قوله عليه السلام (فقد نودي فيكم بالرحيل) لوجدنا أنها مشبعة بالمعاني ، فالرحيل كما قلتُ هو الموت ولكن لِمَ قال الإمام " نودي فيكم " وهو لايقصد واحداً بعينه لكون الآجال متفاوتة ، لا تأتي في وقت واحد ،والجواب أنّ العبارة مختصرة والمنادي مجهول فقد يعني الإمام أن الموت لابدّ منه وكل ابن أنثى لابدّ من أن يموت مهما طال به العمر وقد قال تعالى { إنّك ميّت وإنهم لميتون } (الزمر ٣٠) وقد يعني أن علامات الموت من ظهور الشيب وضعف البدن وكثرة الأمراض تنادي المؤمن ليأخذ أهبته للرحيل، وقد يعني أنّ من يموتون أمام أعينكم هم السابقون وأنتم اللاحقون وسوف ينالكم ما نالهم طال أو قصر الزمن ،كل تلك المعاني وغيرها تحملها جملة الإمام الموجزة فالإمام ـ عليه السلام ـ يحذّرهم من حب الدنيا إلى حد نسيان الآخرة كما صرح في أكثر من قول، ويأمرهم بالإقلال من الإنشغال بالدنيا قائلاً " وأقلّوا العُرجة على الدنيا " والعرجة تعني إطالة المقام فإذا أراد المرء الإقامة ربط مطيته بباب الدار فيقولون ما لي عليه عرجة إذا لم يرد الإقامة عنده ، قال الخليل "والتعريج حبسك مطيتك ورفقتك مقيماً على رفقتك أو لحاجة وما لنا عُرجة بموضع كذا أي مقام "(١١) فكيف يقلّ المرء من الإقامة في الحياة وله أجل مسمّى لايعلمه وهل عرجته بيده ؟ الجواب يفسر ما نحن بقصد تبيانه فالإمام لا يقصد الإقلال من الإقامة في الحياة الدنيا بل يريد الإقلال من التشبث بالحياة الدنيا وتوجيه حياته كلها لجمع المال والإستحواذ على الملذّات حلالها وحرامها ، بل ينبغي أن يدرك المرء أنه ميّت لامحالة فينظر إلى آخرته ويجعل أعماله في الدنيا تمهّد لسعادته في الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا ٠وقد قال عليه السلام في المعنى نفسه " واتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم ، وترحّلوا فقد جُدّ بكم واستعدوا للموت فقد أظلّكم " (١٢) وهذا القول لا يقل اختزالاً عن سابقه، فقوله ـ عليه السلام ـ "اتقوا الله " يريد بها اتقوا غضب الله فلا تقربوا أعمال السوء وقوله " بادروا آجالكم " فيه حنكة في صياغة بناء الجملة تثير الإعجاب لأنّ بادروا تعني أسرعوا قال الجوهري " بدر إلى الشيء : أسرع وبابه دخل وبادر إليه أيضاً ، وتبادر القوم: تسارعوا وابتدروا السلاح تسارعوا إلى أخذه (١٣) والنكتة في بناء هذا الكلام أنّ الموت هو الذي يسرع إلى المرء فيبغته أمّا أن يبادر الإنسانُ الموتَ فالمراد بذلك التهيؤ لاستقبال الموت قبل قدومه ، وذلك بتوقع حلوله في كل وقت ، فيأخذ أهبته لما بعد الموت ، بعمل الخيرات ، والتزود بالتقوى والإعتقاد بأنّ كل ما في الدنيا زائل ، وأنه لايعدو أن يكون زينة لأيامه ،وأنّ الباقيات الصالحات خير وأبقى ، وقد اختزل الإمام كل هذه المعاني بقوله "بادروا آجالكم بأعمالكم " على الرغم من معرفته بأنّ لكل

امرئ أجلاً غير أجل غيره لذا جاء بالجمع لأنه قصد أنّ كلّ مسلم يبادر أجله على شاكلته وبطريقته التي تناسبه لأنّ قدراتنا في مبادرة آجالنا متفاوتة بقدر درجات الإيمان والتقوى ٠ ويعزز ما نذهب إليه قوله " وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم "وهو قول بليغ يعجز عن الإتيان به فطاحل الشعراء والخطباء ، فلا يريد الإمام بيعاً أو شراء في سلع أو حاجيات بل أراد اشتراء ما ينفعه يوم القيامة لأن معنى(ابتاعوا : اشتروا والمرء لا يشتري في الحقيقة بل يعمل الأعمال الصالحة التي تبقى وتنفعه في الآخرة كإطعام اليتامى والمسكين والإنفاق في سبل الخير وإعانة المعوزين وبذلك يقول الإمام ـ عليه السلام في وصيته لابنه الحسن ـ عليه السلام "وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه فاغتنمه وحمّله إياه٠ وأكثر من تزويده وأنت قادر عليه فلعلك تطلبه فلا تجده٠ واغتنم من استقرضَك في حال غناك ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك "(١٤) والكلام في النصين واحد وإن اختلفت أساليبه فالإمام علي ـ عليه السلام كما ذكرت يعيش في غربة بين الناس الذين يكنزون الذهب والفضة ويسعون لدنياهم ولا يعملون لآخرتهم فيحزنه ذلك ويؤلمه لذا كانت أكثر وصاياه للناس أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله ليجدوا ذلك عند الله محفوظاً يخفف عنهم ذنوبهم ويدخلهم جنات الخلد ٠فالكلام مختصر لكن دلالاته مستفيضة أوجزت بعضها بما ينفع للتمثيل فقط ٠

٣ ـالإتساق والإنسجام :

أولى النقاد العرب الإتساق والإنسجام جلّ عنايتهم وعدوه من معايير الجودة في النظم ، ويتم بوضع بعض الفصول والمعاني من بعض بشكل أفضل بالنظر إلى أول الكلام ومنعطفه وخاتمته (١٥) كما أولى الباحثون في نحو النص اهتماماً كبيراً باتساق النص وانسجام مكوناته ، قال محمد خطابي " يحتل اتساق النص وانسجامه موقعاً مركزياً في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات تحليل الخطاب ، ولسانيات الخطاب / النص ، و نحو النص وعلم النص حتى إننا لا نكاد نجد مؤلفاً ، ينتمي إلى هذه المجالات خالياً من هذين المفهومين أو من أحدهما أو من المفاهيم المرتبطة بهما كالترابط والتعالق وماشاكلهما "(١٦)

ومن يتأمل في كلام الإمام علي ـ عليه السلام ـ يجد أنّه يتصف باتساق عباراته في نظم متوافق في ألفاظه وجمله ومقاطعه فترى العبارات والجمل بأنساق متوازية ومتقاربة فهو ينحت الجمل نحتاً ويصوغها ببراعة ويستطيع كل باحث أن يجد تناسب الألفاظ في الجمل بسهولة ويسر انظر إلى قوله عليه السلام "

يحيون على فَتْرَة ـــــ ويموتون على كَفْرَة

فاتقواسكرات النّعْمَة ـــــ واحذروا بوائق النّقْمَة

طُلُوع جنينِها ـــــ وظهور كمينها

شبابها كشباب الغلامِ ـــ وآثارها كآثار السلام

فتزيغ قلوبٌ بعد استقامة ـــ وتضل رجالٌ بعد سلامة

وتختلفُ الأهواءُ عند هجومها ـــــ وتلتبسُ الآراءُ عند نجومها(١٧) فلو وازنت بين كل جملتين من الجمل المتسقة لوجدت أنّ الإمام عليه السلام يجانس بين اللفظة وما يقابلها (يحيون) و(يموتون) فهما متناظرتان ومتضادتان في المعنى وبعد كل فعل حرف الجر المتعلق به (على)٠وانظر إلى كلّ من اللفظتين (فترة) و(كفرة) تجدهما بصيغة واحدة هي (فَعْلَة) كما تجد المعنى في الجملتين مترابطاً ومتصلاً بعضه ببعض٠ ثمّ انظر إلى الجملتين الأخريين تجد التجانس بين الألفاظ واضحاً إذ جاء الفعلان بصيغة الأمر المسند إلى الواو في الجملتين(فاتقوا) (واحذروا) ، والمفعول به بصيغة الجمع في كلا الجملتين ،وإن اختلف نوع الجمع في المفعولين (سكرات) و(بوائق)وستلمس التجانس واضحاً في المضاف إليه في الجملتين (النعمة) و(النقمة) من حيث الصيغة والتأنيث والتعريف مع مراعاة المقابلة بالضد في معنى اللفظتين ، وتلمس التناسق في الألفاظ وكأنها وزنت بميزان في قوله (طلوع جنينها) و(وظهور كمينها) ، فأورد في كلّ منهما مصدراً مماثلاً للآخر في صيغته (طلوع وظهور) وراعى المساواة في نوع المضاف إليه ووزنه وما أضيف إليه من ضمير ٠وليس بنا حاجة إلى مزيد فحص وموازنة في الجملتين التاليتين لمعرفة وجوه التناظر بين كل ركن من أركانهما ، وكذلك الحال في الجملتين الأخيرتين فهما مكونتان من فعل مضارع (فتزيغ ، وتضلّ)،وفاعل نكرة مجموع جمع تكسير (قلوب ، رجال) وظرف تكرر في الجملتين (بعد) ومضاف إليه متجانس في صيغته (استقامة ، سلامة) فالجمل التي اخترتها من خطبة واحدة تدل على أنّ خطاب الإمام ينثال بجمل متسقة في بنية أركانها وكأنه يصوغها بترتيب ومواءمة بين الألفاظ ليشد السامع إليه في حسن انتقائه للألفاظ المتناظرة في صيغها وأدواتها ولبيان نمط المجانسة في الصيغ تأمّل في نص يظهر فيه حبه لله عزّ وجلّ ولاحظ استعماله صيغة (ما أفعل) التعجبية فيه قال عليه السلام " ما أعظم ما نرى من خلقكَ ، وما أصغرَ عظيمَه في جنب قدرتك ، وما أهول ما نرى من ملكوتكَ ، وما أحقر ذلك فيما غاب عنّا من سلطانك ، وما أسبغ نعمَك في الدنيا ، وما أصغرَها في نِعَم الأخرة "(١٨) فقد كرر الصيغة التي عدّها النحاة قياسية في التعجب ، وهو يدرك عليه السلام أن تكرار هذه الصيغة في هذا المقام الذي تتوالى فيه نعم الله وصفاته التي ينبغي أن تحاط بهالات الإجلال والتعظيم تتسق مع المقام ، فأكثر ـ عليه السلام ـ منها لتتحقق المجانسة بين مكونات النص والمعنى المقصود ويتجلى ذلك في ورود (ما أفعله) في عدد من الجمل بمقابلة طريفة في المعنى فيضع الصيغة وما يقابلها في المعنى (ما أعظم وما أصغر) (ماأهولَ وما أحقر) (ما أسبغ وما أصغر) ولا نجد ملاً في تكرار الصيغة بل نجد تجانساً أسبغ على النص حلاوة وجمالاً ٠ ثم يُتبع ذلك بتكرار صيغة أخرى مشابهة لها ومناسقة هي (أفعل) التفضيل في قوله عن الملائكة " من ملائكة أسكنتهم سماواتك ، ورفعتهم عن أرضك، هم أعلم خلقك بك ، وأخوفهم لك ، وأقربهم منك " (١٩) ٠ومثله قوله

عليه السلام في وصف من أحبهم من المؤمنين " ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً ، وأجهد العباد بلاءً ، وأضيق اهل الدنيا حالاً " (٢٠) ٠

وربما تظهر المجانسة في ترتيب الجملة كالتقديم في متعلقات الفعل من مفعولات أو حروف جر فلو دققنا في الجمل الآتية " فلا الداعيَ أجابوا ، ولا فيما رغَبتَ رغِبوا ، ولا إلى ما شوّقتَ اشتاقوا " (٢١) لألفينا أنّ الإمام ـ عليه السلام ـ قدّم المفعول به ، وحرفي الجر(في) (إلى) في نسق جميل ، وقد تجد التناسق في ترتيب بنية الجملة في تقديم جواب الشرط على الأداة وجملة الشرط في نحو قوله عليه السلام في حديثه عن أحبائه الزاهدين في الحياة الدنيا " إنّ الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإنْ ضحكوا ، ويشتد حزنهم وإنْ فرحوا، ويكثر مقتُهم أنفسَهم وإنْ اغتبطوا بما رُزقوا " (٢٢) ٠ وفي هذه التراكيب يرى النحويون أنّ جواب الشرط محذوف لدلالة ما تقدّم عليه (٢٣)ولا نميل إلى ذلك ونرى أنّ ما ذهب إليه المبرد في جواز تقدم الجواب على أداة الشرط وفعله مما يجيزه العرب ٠

وقد يكون التناسق في نوع الجملة فتتبع الفعلية مثيلتها والاسمية نظيرتها نحو قوله عليه السلام للمسلمين وقد فرّق بينهم خبث السرائر وسوء الضمائر " فلا توازرون ولا تناصحون ولا تباذلون ولا توادّون " (٢٤) نسق من الجمل الفعلية المنفية بـ (لا) و يقول في حبيبه المصطفى ـ صلى الله عليه وآله وسلّم في نسق مماثل من الجمل الإسمية " عترتُه خيرُ العتر ، وأسرته خير الأسر ، وشجرتُه خير الشجر ٠٠٠٠فهو إمام من اتقى وبصيرة من اهتدى ، سراج لمع ضوؤه وشهاب سطع نوره ، وزند برق لمعه، سيرته القصد ، وسنته الرشد وكلامه الفصل وحكمه العدل " (٢٥) وأرى أنّ هذه الهندسة في نظم الكلام والقدرة الفائقة على مواءمة الألفاظ ونسق الجمل في مجاميع متناسقة متآلفة تمنح النص حيوية ونضارة وجمالاً تجعل المخطب مشدوداً إلى سحر هذا البيان ، يستقبله بتأثر وانفعال وتعاطف مع المنشئ فيما يذهب إليه ٠

٤ـ التجانس بين مكوّنات الجملة :

تمتاز نصوص نهج البلاغة بانسجام الألفاظ في الجملة ، وفي المقطع ، فلا تجد تنافراً بين تلك المكونات ، ولا تباعداً في المعاني ، ولو تأملنا مليّاً في وصف الإمام ـ عليه السلام ـ المخيف لمصير الإنسان ومآله بعد عيش رغيد لوجدنا الجمل تتناسق مكوناتها وتتآلف بعضها مع البعض الآخر وقد آثرت أن أنقل مقطعاً من النص ليكون شاهداً على ما نقول نستطيع من خلاله الغوص في أعماق بنية النص ودراسة التجانس بين مكونات بنية الجملة في ضوء سياق النص قال الإمام " فمات في فتنته غريراً ، وعاش في هفوته يسيراً، لم يفد عوَضاً ، ولم يقض مُفْتَرَضاً ، دهمَتْه فَجَعَاتُ المنيّة في غُبَّر جماحه ،وسَنَن مِراحه ، فظل سادراً ، وبات ساهراً في غمَرات الآلام ، وطوارق الأوجاع والأسقام ، بين أخٍ شقيقٍ ، ووالد شفيقٍ ، وداعيةٍ بالويل جزعاً ، ولا دمةٍ للصدر قلّقاً ،والمرءُ في سَكرة مُلهيةٍ ، وغمرة كارثةٍ ، وأنّةٍ موجعةٍ ، وجذبةٍ مُكربةٍ ،وسَوقةٍ متعبةٍ ، ثمّ أدرجَ في أكفانه مُبلِساً ،وجُذبَ منقاداً سلساً ثُمّ ألقي على الأعوادِ ، رجيعَ وَصَبٍ ، ونِضوَ سَقْمٍ تحمله حفَدَةُ الولدان ، وحشدة الإخوان إلى دار غربته، ومنقطع زَوْرَته حتى إذا انصرف المشيّع ، ورجع المتفجّع أُقعِدَ في حفرته نجيّاً لبهتة السؤال وعثرَة الإمتحان ،وأعظم ما هنالك بليةُ نزول الحميم ، وتصلية الجحيم ، وفورات السعير وسورات الزفير ، لا فترةٌ مريحةٌ ولا دَعَةٌ مزيحةٌ ،ولا قوّةٌ حاجزةٌ ، ولا موتةٌ ناجزةٌ ، ولا سنة مسلّية بين أطوار الموتات ، وعذاب السعرات".(٢٦)

فلو دققنا في مكونات هذا النص لوجدنا المكونات متجانسة ففي قوله (فمات في فتنته غريراً) و (عاش في هفوته يسيرا) تتكون كل جملة من (فعل + جار ومجرور + اسم منصوب) وفيهما الفعلان متضادان في المعنى والاسمان المنصوبان متجانسان في اللفظ وإن اختلف الموقع الإعرابي لكل منهما، ذلك أنّ الأول حال ، والثاني نعت لظرف مستغنى عنه ، فالاسمان فضلتان والفضلة والجار والمجرور في الجملتين من متعلقات الفعل والجملتان الأخريان تجانست مكوناتهما (لم يفد عوضاً) (لم يقضِ مفترضاً) دخلت (لم) في الجملتين على ما تختص بالدخول عليه وهو الفعل المضارع واسند كل فعل إلى مسند إليه يدلّ على الغائب و الاسمان المنصوبان متجانسان في الموقع واللفظ ، ولم يرد في هذه الجمل ما هو غريب أو طارئ في بنيتها ٠ ولاحظ قوله (فظلّ سادراً ، وبات ساهراً) فالإنسجام في مكونات الجملتين واضح ،ففي كلّ منهما فعل ناقص واسمه ضمير يدل على الغائب استغني عن ذكره يتبعه وصف منصوب سمّاه البصريون خبراً والكوفيون حالاً (٢٧) وقد تعلّق بالوصفين جار ومجرور (في غمرات الآلام)، وعطف عليهما ما يجانسهما من حيث الإضافة والجمع (وطوارق الأوجاع والأسقام) ولو عدنا إلى دلالة تلك المكونات وارتباط بعضها ببعض معنوياً لوجدنا أنّ الفعل مات في قصد الإمام عليه السلام يرتبط بما يحذر منه من سدر المرء في غيّه حتى يفجأه الموت، وقد مرّ بنا قوله"بادروا آجالكم بأعمالكم " وهو القائل أيضاً " فبادروا المعاد وسابقوا الآجال "(٢٨) لذا قال " مات في فتنته غريراً " أي مات وهو منغمس في فتن الشيطان غافلٌ عما سيحدث له ، وعاش في هفوته يسيراً أي عاش حياته زالّاً عن الطريق الصواب ، منحرفاً عن الصراط المستقيم ، فلم يمض عليه وقت طويل حتى وجد الموت يطبق عليه٠ فاستعمال (غريراً) مع الفعل (مات) واستعمال (يسيراً) مع الفعل عاش يدل على انسجام بين الفعل والاسم المنصوب بعده ٠ ولاحظ الإنسجام بين(ساهراً) وما تعلّق به في قوله : (في غمرات الآلام) و (طوارق الأوجاع والأسقام) ذلك أنّ شدّة الآلام، و وكثرة ما يطرقه من الأوجاع والأمراض، تحرمه من النوم فيظل ساهراً لعدم تمكنه من النوم ٠ويظل ساهراً (بين أخ شقيق ٠٠٠) ٠ و(بين) ظرف مكان متعلق بـ (ساهراً) فهو مسجى بين أقاربه لايردون عنه الألم ولا يمنعون عنه السهر ،كما قال تعالى { فلولا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذٍ تنظرون } (الواقعة ٨٣ ـ٨٤) (٢٩) وانظر إلى الاسمين (جزعاً) و(قلقاً) تجد الإنسجام بينهما وبين العامل في نصبهما كما يرى النحويون ٠ فالداعية بالويل والثبور لا يصدر عنها ذلك إلاّ لجزعها

ونفاد صبرها ،ولا تلدم صدرها إلاّ حين ترى هذا العزيز يعاني من تلك الآلام فتقلق على مصيره ، لذا قال (داعية) في الأولى و(لادمة) في الثانية ٠وانظر في دلالة النعت والمنعوت فيما بعد هذه الجمل تجد الإنسجام بين الصفة والموصوف في قوله " والمرء في : (سكرة مُلهية) و (غمرة كارثة) و(أنّة موجعة) و(جذبة مكربة) و(سوقة متعبة) فسكرة الموت تلهي المرء عن كل ما يحيط به من أولاد وزوجة وزينة ومال ،وغمرات الموت :شدائده ، وفي لحظات الشدة يعيش في مصيبة وكرب يملكان عليه كلّ جوارحه ويقطعان كل آماله فوصف الغمرة بالكارثة منسجم في دلالته ، وكذلك قوله (وأنّة موجعة) فالأنّة والزفرة تدلان على ما يقاسيه هو من آلام ،أو أنّ الأنة تثير في نفوس المحيطين به الآلام والأوجاع ٠ومثلها في الإنسجام (وجذبة مكربة) ويريد بالجذبة تصاعد الأنفاس في لحظات الموت وهي تثير الكرب والحزن والتشاؤم لأن تلك الجذبات توحي بانتهاء الحياة ٠ ومثلها سوقة الأنفاس التي تتعب الميّت وتنهكه ، فالأوصاف منسجمة يوضح بعضها بعضاً وكلها تصب في معنى واحد يزيد من تماسك النص لانسجام مكوناته وانظر بتأمل في الجمل التي تبدأ بالأفعال المبنية للمجهول (أُدرِج) و(جُذِب) (أُلقي)وتدبّر فيما بعد كل فعل تجده منسجماً تمام الإنسجام ، فالميت لا حول له ولا قوة بعد موته، لن يعمل شيئاً بل يصبح مستسلماً يعمل فيه الناس ما يلزمه قبل دفنه ، ومما يلزمه هو إدراجه في كفنه، وتأمل بعمق في (مبلساً) و (منقاداً) و(سلساً) (رجيع وصبٍ) و (نضو سقَم) تجد أن الميت مطاوع ويائس لايعترض ولا يقاوم لأنّ قواه قد انهارت فهو مهزول الجسم متعب ، ويدل على ذلك أن الفعل لم يبن للفاعل بل بُني للمجهول وجاءت المنصوبات دالة على الخنوع واليأس والإستسلام ، ونلاحظ الإنسجام بين الفعل وفاعله ومتعلق الفعل في قوله " تحمله حفدةُ الولدانِ ،وحشدة الأخوان ، إذ أنّث الفعل لجمع التكسير المنتهي بالتاء (حفدة وحشدة) مجانسة للفظ وأفرد الفعل للفاعل في قوله "انصرف المشيّع ورجع المتفجع " ولم يقل(المشيعون) أو(المتفجعون) لأنه لايريد كثرتهم أو قلّتهم بل أراد جنس المشيعين وجنس المتفجعين٠

ومن يتتبع مكونات الجمل الأخرى يجد التجانس بين مكونات الجمل واضحاً بين الأفعال وفاعليها ومتعلقاتها وبين الموصوفات وصفاتها والأحوال وأصحابها فلا تنبو لفظة عن اختها ولا تتنافر واحدة مع الأخرى ٠وهذا التجانس بين مكونات النص يشدّ أواصر تلك المكونات ويزيد من تلاحمها وتماسكها حتى يبدو النص وحدة متكاملة ٠

٥ـ التداخل النصي :

وهي خاصية واضحة في نصوص نهج البلاغة عموماً والنصوص المعبرة عن المعاني النفسية خصوصاً، ونقصد بالتداخل امتزاج نصوص الإمام علي عليه السلام ـ بنصوص أخرى وهو ما يطلق عليه أحياناً (التناص) وهنا أقرر حقيقة لفتت نظري من خلال تتبع نصوص نهج البلاغة ونصوص الصحيفة السجادية وخطبة السيدة فاطمة عليها السلام والخطب المأثورة عن الأئمة من آل البيت أنّها متداخلة ومتناظرة وبمستوى متقارب لأنها جميعاً تغترف من منبع واحد هو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، ولا أجد غرابة في تداخل نصوص نهج البلاغة بنصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لأنّ من يدرس سيرة الإمام علي ـ عليه السلام ـ وملازمته للنبي محمد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وسماعه وحفظه القرآن الكريم ومعرفته كلّ ما يتعلّق بسوره وآياته وأسباب نزوله ومحكمه ومتشابهه ، وناسخه ومنسوخه وسماعه ما نطق به رسول الله ـ صلّى اله عليه وآله وسلّم ـ في كل مناسبة وفي كل مقام ، يدرك أنّ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف يعيشان في عقل الإمام ووجدانه ومشاعره وأحاسيسه فامتزجت ألفاظه بألفاظ القرآن الكريم وجرت جمله على لسانه وكأنها جزء من ثروته اللغوية والأسلوبية ومن يستقص مفردات القرآن وتراكيبه في نهج البلاغة يجد معجماً كبيراً ٠

ومن تلك التداخلات النصية قوله عليه السلام : "واصبروا لها أنفسكم " (٣٠) وهو نصّ يتداخل مع قوله تعالى { واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ } ((الكهف ٢٨) مع فارق في الاستعمال حيث ورد الفعل (اصبر) متعدياً بنفسه في القرآن الكريم على حين تعدى بحرف الجر في كلام الإمام ـ عليه السلام (إلى أنفسكم)٠ وقوله عليه السلام " استمسكْ من العرى بأوثقها " وهو يتداخل مع قوله تعالى { فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها } (البقرة ٢٥٦)وقوله تعالى { ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى }(لقمان٢٢) مع اختلاف في البنية لايغير كثيراً في المعنى إذ وردت العروة مجرورة بحرف الجر(الباء) وموصوفة بلفظة (الوثقى)على حين وردت في كلام الإمام عليه السلام مجرورة بحرف جر آخر هو (من) وجاءت الوثقى بصيغة (أفعل) وأضيفت إلى الضمير (ها) العائد على العروة ٠ ونستطيع الربط بين قوله عليه السلام " قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود وحلالها بعيداً غير موجود ، وصادفتموها والله ظلاً ممدوداً إلى أجل معدود "(٣١) وقوله تعالى " واصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود ، وطلح منضود وظلّ ممدود } ٠(الواقعة ٢٧ ـ ٣٠) إذ تجد الإمام عليه السلام اقتبس من الآية الكريمة ((السدر المخضود) والفرق بين الاستعمالين انها وردت في الآية الكريمة بنكرتين ووردت في كلام الإمام معرفتين ،واقتبس عليه السلام من السورة نفسها (ظلاً ممدوداً) والفرق بين نص الإمام والآية الكريمة مجيء اللفظتين في كلام الإمام منصوبتين وفي الآية الكريمة مجرورتين ٠ وكذلك قوله عليه السلام " أفٍ لكم لقد سئمتُ عتابكم ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عِوضاً " يلتقي مع قوله تعالى { يا أيّها الذين آمنوا ما لكم إذا قِيْلَ لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليلٌ }(التوبة ٣٨) فالنصان يلتقيان في الألفاظ والبناء والمناسبة وهي توبيخ المتخاذلين عن الجهاد ٠

ويتضح هذا التداخل في النصوص في قوله ـ عليه السلام ـ " قد وكّل بذلك حَفَظةً كراماً لا يسقطون حقّاً ولا يثبتون باطلاً واعلموا أنّه مَنْ يتقِ الله يجعلْ له مَخرجاً من الفتن ونوراً من الظُلَم " (٣٢) وفيه تداخل في موضعين الأول قوله "قد وكّل

بذلك حفظة كراماً " وهو مستوحى من قوله تعالى { وإنّ عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين }(الإنفطار ١١) والموضع الآخر قوله عليه السلام " واعلموا أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن " وهو مستوحى من قوله تعالى { ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب } (الطلاق ٦٥) والفرق في الموضعين بين النص القرآني ونص الإمام هو اتيانه ـ عليه السلام ـ بجمع تكسير (حفظة) وفي الاية الكريمة (لحافظين) بصيغة جمع المذكر السالم وتكرر(كراماً) في النصين وصاغ الإمام من معنى (كاتبين) جملة (لايسقطون حقا ولا يثبتون باطلا" وهذا لايختلف في معناه عن لفظة (كاتبين) ٠

ويلتقي قوله عليه السلام : " وإنّ للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً فلم تشغلهم تجارةٌ ولا بيعٌ عنه مع قوله تعالى { رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله }(النور ٣٧) ويأخذ الإمام علي ـ عليه السلام ـ كثيراً من ألفاظه ومعانيه من القرآن الكريم كقوله عليه السلام مخاطباً معاوية " ولمّا أدخل الله العربَ في دينه أفواجاً وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً كنتم ممن دخل في الدين إمّا رغبةً وإمّا رهبةً على حين فاز أهل السبق بسبقهم ، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم فلا تجعلنّ للشيطان فيك نصيباً ولا على نفسك سبيلا) (٣٣)

وفي هذا النص أكثر من تداخل نصّي فقوله عليه السلام" فلما أدخل الله العربَ في دينه أفواجا) مستوحى من قوله تعالى { إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبّح بحمد ربك واستغفرْه إنّه كان توّابا } والفرق بين نص الإمام والآية الكريمة أنّ الإمام ـ عليه السلام ـ قال " أدخل الله " بدلاً من "يدخلون" في هذا المقام الذي يردّ فيه على تبجح معاوية بدخول الإسلام ليشعره بأنّ الله تفضل على العرب بدخولهم في الإسلام وأنّ دخولك لم يكن إيماناً بل كان رهبة من سيوف المسلمين أو طمعاً في أموال دولة المسلمين وما أفاء الله به عليهم من خيرات٠وفي ذلك تبكيت وتوبيخ٠ وقوله " طوعاً وكرهاً " مستوحى من قوله تعالى { وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً } (آل عمران ٨٣) وقوله عليه السلام " على حين فاز أهل السبق بسبقهم " مستوحى من قوله تعالى { والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنّات النعيم } (الواقعة ١٠ ـ ١٢)أو قوله تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم } (التوبة ١٠٠) وفي هذا النص اختار من الآيتين ما يناسب الموقف لمن يدعي الإسلام أنّ فضله ليس كفضل السابقين والأولين من المهاجرين والأنصار ٠ وما أوردته من نصوص أمثلة قليلة ، ومن يستقص وجوه التداخل النصيّ في نهج البلاغة وما يستوحيه من القرآن الكريم يجد عجباً ٠ولو استعرضنا الأمثلة التي أوردتها ونظرنا فيها بعمق لوجدنا أنّ التداخل قد يكون إمّا :

١ ـ تداخلاً لفظياً إذ يجعل الإمام عليه السلام معجمه مستمداً من معجم ألفاظ القرآن الكريم فهو ـ عليه السلام ـ يميل إلى استعمال الألفاظ القرآنية في عباراته وجمله التي تعبر عن مشاعره وأحاسيسه وأفكاره لأنها ألفاظ تعيش في عالمه اللغوي واستعمالاته اليومية لحفظه القرآن الكريم واستيعاب معانيه ودلالات ألفاظه ٠

٢ـ تداخلاً في جزء من مكونات الكلام بذكر لفظين أو أكثر من الآية الكريمة ٠

٣ ـ تداخلاً يقتبس فيه الإمام ـ عليه السلام ـ آية ويزيد عليها لفظاً أو لفظين من كلامه بحسب ما يتطلبه المقام ٠

٤ ـ تداخلاً يخلط فيه الإمام ـ عليه السلام ـ كلامه بألفاظ قرآنية ممتزجة بألفاظه المقرّبة لألفاظ القران الكريم و بروح قرآنيّة متكاملة ٠

٥ ـ تداخلاً معنوياً يعيد فيه الإمام ـ عليه السلام ـ صياغة الآيات الكريمة بألفاظه هذا فضلاً عن أنّ الإمام ـ عليه السلام ـ يقتبس من القرآن الكريم آيات كثيرة لم أشأ الحديث عنها لأنّ البحث في ذلك يخرجنا مما نحن فيه من الحديث عن بنية النص..

المبحث الثاني : علاقات التماسك في النص النفسيّ:

توطئة :لم يتفق الباحثون المحدثون على اتجاه موحّد في دراسة قضية التماسك بين مكونات النص وأجزاء بنيته لما يتصف البحث فيه من التجريب والتنظير الفردي فلم أجد مجموعة من العلماء المحدثين الذين كتبوا في النص يتفقون على خطوط أساسية يمكن دراستها ووضع الملاحظ عليها بل وجدت كل باحث يدرس المسألة من نظرته الخاصة بالنص ، ووجدت المحدثين العرب وللأسف يلهثون خلف هذه الرؤى المتباينة لايعرفون ماذا يأخذون منها فيقرأ الباحث كتاباً لأحد منظّري الغرب ويظن أنه قد فتح فتحاً مبيناً، فيتمسّك بتقسيماته ، وحدوده ،وأمثلته ،وكأنّها هي الأساس في هذا الموضوع ، ويذهب باحث غربي آخر مذهباً آخر فيتبعه من العرب آخرون وهكذا تجدنا نلهث وراء آراء الغربيين من غير اتفاق على أسس متفق على صحتها ، وقد أشار الدكتور صلاح فضل إلى هذه القضية قال "علينا أن نؤكد أن التماسك ليس مجرد نوع من الظواهر الموضوعية للقول فحسب ، بل إنّه باعتباره(كذا) مظهراً للمدلول ولتفسير الخطاب يصبح ذاتياً وشخصياً ٠٠٠ومن هنا يرى الباحثون أنّ المشكلة الأساسية التي تقوم عند مواجهة مفهوم تماسك النص تنبثق من طبيعة النص ذاته (كذا) إذ تنصبّ عليه بحوث متعددة الإختصاصات والتوجّهات ممّا يجعل تحديد مفهوم عام للتماسك أمراً عسيراً " (٣٤) ولبيان ذلك أشير إلى أنّ أولئك الباحثين لم يعدوا العدة لوضع تنظير جديد بل ما زالوا موزعين بين الأثر الغربي والتراث العربي ، إذ يرى د عمر أبو خرمة أنّ أبرز خصائص النص أن يكون متتالية جملية خطية متصلة ويقترح لها مجموعة قوانين تسمح بتماسكها فلا تنفكّ وحين يعرض القوانين نجد أنّ اكثرها مستنبط من أفكار عربية قديمة أبدل تسميتها، وبعضها لا علاقة له بالتماسك (٣٥) وأرى أنّ ما قدّمه الدرس البلاغي والنحوي عند العرب فيه كثير مما تنتظم فيه رؤية التماسك بمنظور شامل ،على حين ما زال البحث الحديث يتخبط في ذلك وأفضل ما قدّمه في هذا المضمار لا يعدو ما أنتجه

العقل العربي ، وسوف نحاول في دراستنا اعتماد المقولات العربية ونستفيد مما قدّمه النظر الحديث ويمكن تقسيم هذه العلاقات على قسمين :

الأول : العلاقة بين الألفاظ : وهو ما يدعى قوّة الوشائج بين الألفاظ ويعتمد على ترابط الألفاظ بعضها ببعض

الآخر : نعني به الترابط بين مجموعات من الجمل في ضمن قطعة معنوية متجانسة تربطها بالقطعة التي قبلها والتي بعدها وشائج لفظية ومعنوية وبنيوية ولا أريد الخوض في هذه العلاقات من الناحية التنظيريّة بل سأستنبط هذه العلاقات من نص نفسي من نصوص نهج البلاغة أحلل فيه بنية النص لاستجلاء العلاقات بحسب القسمين الأول والآخر ، قال الإمام عليه السلام في ذمّ أصحابه :

" احمدُ اللهَ على ما قضى مِن أمرٍ ، وقدّرَ من فعلٍ ، وعلى ابتلائي بكم أيّها الفِرقةُ التي إذا أمَرْتُ لم تُطِعْ ، وإذا دعوتُ لم تجبْ ، إنْ أُمهلتُم خُضتُمْ ، وإنْ حُوربتُم خُرتُمْ ، وإنْ اجتَمَعَ الناس على إمامٍ طعنتُمْ ، وإنْ أُجبتُمْ إلى مُشاقّةٍ نكصتُمْ ، لا أبا لغيركُمْ ، ما تنتظرونَ لنصركمْ والجهاد على حقّكم ؟ الموتَ أو الذلَّ لكم ، فَوَاللهِ لَئِنْ جاء يومِي - ولَيَأتِيَنِّي - ليُفَرَّقَنّ بيني وبينكم وأنا لِصُحبتِكُم قالٍ، وبكم غيرُ كثيرٍ ، للهِ أنتم ، أمَا دِينٌ يجمَعُكُم ؟ ولا حميّةٌ تشحَذُكُم ؟ أوَ ليس عَجَبَاً أنّ معاوية يدعو الجفاةَ الطَّغَامَ فيتّبعونَهُ على غير معونةٍ ولا عطاءٍ ، وأنا أدعوكم - وأنتُم تريكةُ الإسلام وبقيّةُ الناسِ - إلى المعونةِ وطائفةٍ من العطاء فتفرّقونَ عنّي وتختلفون عليّ ، إنّه لا يخرجُ إليكم مِن أمري رضى فترضَوْنَه ، ولا سُخْطٌ فتجتمعون عليه ، وإنّ أحَبَّ ما أنا لاقٍ إليّ الموتُ ، قد دارستُكُمُ الكتابَ ، وفاتَحْتُكم الحِجاجَ ، وعَرّفتُكم ما أنكرْتُم ، وسَوّغْتُكم ما مَجَجْتُم ، لو كان الأعمى يَلْحَظُ ، أو النّائمُ يستيقظُ ، وأقربُ بقومٍ مِنَ الجَهلِ باللهِ قائدُهُمْ معاويةُ ، ومُؤدبُهم ابنُ النابغةِ . " (٣٦)

الخطبة مشحونة بالعواطف ، إذ تعبّر عن سخط الإمام - عليه السلام - على من يخاطبهم من المتخاذلين عن الجهاد والمماطلين في المواعيد ، والمبتعدين عن توجّه الإمام الذي يمثل النهج المحمديّ يتبعون أهواءهم ويعبدون شياطينهم فهم والإمام على طرفي نقيض فالخطبة نسج من المعاني النفسية الطاغية وردت بعبارات زاخرة بمعاني الحزن والألم والغضب والتبكيت والتوبيخ وغيرها من المعاني .وهي وحدة نصية متكاملة سنحاول دراسة الروابط بين أجزائها . فالناظر إلى الخطبة نظرة كلية يجد انها سلسلة من المقاطع المترابطة المتماسكة تشدها أدوات ومعان ، وما يسمّيه البلاغيون من فصل ووصل ، وطرائق أخرى اقتضاها المقام والحال ولا اريد الخوض في تنظيرات الربط والتماسك بل سأجعل ذلك يأتي في اثناء الحديث عن تقسيمات الخطبة وربط أجزائها ووسائل تماسك تلك الأجزاء على النحو الآتي :

١ - المقطع الأول : يبدأ بقوله عليه السلام مفتتحاً الخطبة "أحمد الله على ما " ثمّ يشطر ماحمد الله عليه إلى شطرين مترابطين بحرف عطف يربط جملة بأخرى :

١- (قضى من أمرٍ) و٢- (قدّر من فعلٍ)

وأداة الربط هنا (الواو) وهي الأداة التي ربطت الجملة المسبوقة بأداة الوصل (ما) التي سموها (المصدرية) بالمصدر (ابتلائي) ليكون الكلام على النحو الآتي :

أحمد الله على ما (قضى وقدّر) وعلى (ابتلائي بكم) .

٢- المقطع الثاني : يرتبط هذا المقطع بما سبقه برابط هو (أيتها الفرقة)وهو نداء متصل بالضمير الدال على جماعة المخاطبين (كم) وهو رابط قويّ يشدّ ما قبله بما بعده وهو ليس نداءً في الحقيقة بل استعملت أداة النداء (أيّ) للتعبير عن التوبيخ لأنّه حين قال (ابتلائي بكم) ربط الكلام بتوضيح الضمير(كُم) فقال (أيتها الفرقة) تبياناً وتوضيحاً ولكون (الفرقة) معرفة ربطها بأداة الربط والوصل (التي)فالمقطعان ارتبطا بـ (ايتها الفرقة) ، أمّا (التي) فقد ربطت مجموعتين من الجمل الشرطية هي : المجموعة الأولى : وتتكون من جملتين ارتبطت إحداهما بالأخرى بحرف العطف (الواو) هما :

١- إذا أمرتَ لم تُطِعْ ٢ - وإذا دعوتَ لم تَجِبْ .

المجموعة الثانية من الجمل المرتبطة بـ (التي) وإن لم تعطف على المجموعة الأولى بحرف عطف ظاهر ولكن المعنى يدل على ارتباطها وهو ما يعدّ من الربط بواو غير مذكورة ويلاحظ فيها (الإلتفات) من ضمير الغيبة للمؤنث ،إلى ضمير الخطاب لجماعة المخاطبين الذكور، وتتكون هذه المجموعة من أربع جمل ترتبط فيما بينها بحرف العطف (الواو)وهي :١- إنْ أمهلتم خضتم ٢ - وإن حوربتم خرتم ٣- وإن اجتمع الناس على إمامطعنتم ٤ - وإن أجبتم إلى مشاقة نكصتم .

وقد يسأل سائل كيف رُبطت مجموعة إحدى جملتيها صلة لموصول والأخرى معطوفة عليها ، بمجموعة أخرى اختلفت فيها أداة الشرط واخلف نوع المخاطب ، ونجيب عن ذلك بأنّ المعنى لم يتغير بتغيّر الأداة من (إذا) إلى (إنْ) لأنّ الكلام في المجموعتين هو في معنى الشرط ، فلم يتغيّر مجرى الكلام بل ازداد الشرط أصالة باستعمال الأداة الأم (إنْ) بعد أن كانت الأداة متضمنة معنى الشرط لذا فالكلام مازال مستمراً في نمطه الشرطي ، أما الإنتقال في الخطاب من الغيبة إلى خطاب جماعة المخاطبين فلم يغير في معنى الكلام لأنّ الإلتفات وظيفته جمالية تؤدي إلى تطرية الإستعمال عند المخاطب وزيادة الإنتباه أمّا من حيث المعنى فما زال الخطاب موجهاً إلى من ابتلي بهم الإمام - عليه السلام - الذين عبّر عنهم بـ (أيتها الفرقة) ولذا نستطيع القول إنّ الكلام مترابط بـ (واو) مستغنى عن ذكراها لأنّ معنى الكلام يوحي بذلك .

والترابط بين مكونات المجموعة الثانية يتجلى باستعمال الواو العاطفة بين جمل متجانسة في بنيتها إذ تتكون كل جملة من أداة الشرط (إنْ) وجملة الشرط المكونة من فعل ماض وفاعله ، وكذلك جواب الشرط في قوله عليه السلام (إنْ أمهلتم خُضتم) و (إن حوربتم خُرتم) وهما جملتان متكافئتان في مكونات بنيتيهما متجانستان في نوع أفعالهما .والجملتان مرتبطتان بواو العطف بجملتين أخريين متقاربتان في مكونات كل منهما مع اختلاف يسير هو أنّ الجملة الأولى بني الفعل فيها للمعلوم وفاعله اسم ظاهر، على حين بني الفعل في الثانية للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير جماعة المخاطبين ، وفي

كل منهما جار ومجرور وجواب الشرط في كلّ منهما فعل ماض مبني للمعلوم أسند إلى ضمير جماعة المخاطبين ٠ والتجانس الملحوظ في كلّ جملتين من هذه المجموعة يمنحها تماسكاً وترابطاً فضلاً عن ربطهما بالواو وهي سمة واضحة في الأساليب العربية ٠

٣ـ المقطع الثالث :يرتبط هذا المقطع بما قبله بقوله عليه السلام داعياً عليهم دعاءً ظاهره أنه ليس عليهم ، وباطنه أنّه عليهم لأنّ ما بعده يدل على سخط الإمام وضجره من سوء أعمالهم وهذا الدعاء " لا أبا لغيركم " والمعهود في مثل هذا المقام أن يقول: (لا أبا لكم) ولكنّ الإمام عدل عن التصريح بذلك إلى الدعاء على غيرهم أدباً وتكرّماً، وقد جعلتْ هذا الدعاء رابطاً لما وجدته من عُلقة بين المقطع السابق وبينه في المعنى لأن الكلام لم ينصرف إلى غرض آخر ، بل امتد التوبيخ والتبكيت إلى من يخاطبهم مع زيادة في حدة التوبيخ، وللتعبير عن هذه الحدّة انتقل الإمام إلى الإستفهام الذي يراد به التوبيخ بقوله " ما تنتظرون لنصركم والجهاد على حقكم " ٠وفي كلامه هذا ربط بين لفظتين هما (نصركم) و(الجهاد) وهذا الإستفهام كما نلحظ مرتبط في قوله عليه السلام بـ (وإنْ أجبتم إلى مشاقة نكصتم) لأنّ المراد بالمشاقة : الحرب لذا وبّخهم على نكوصهم بقوله " ما تنتظرون ٠٠ " وقد وردت في هذا المقطع جملة تبدو منقطعة عمّا قبلها لغياب الرابط بينها وبين ما قبلها وهي جملة " الموتَ أو الذل لكم " وأرى أنّ الكلام متصلٌ تمام الإتصال وإن غابت أداة الربط لأنّ معنى الكلام (أوَ تنتظرون الموت أو الذلّ لكم) وتلك عقبى من يتخاذل عن الجهاد وطلب النصر على الأعداء لأنهم إن تخاذلوا وفشلوا في جهاد أعدائهم فسوف يغزونهم في عقر دارهم فيموت من يموت ويُذل من يبقى حيّاً ، فالإمام ربط كلامه بعضه ببعض وإن لم يذكر أداة ربط بل كان الربط خفياً ٠

٤ـ المقطع الرابع :

وهو مقطع يتفجّر غيظاً وحزناً ربطه الإمام ـ عليه السلام برابطين أحدهما : الفاء في قوله " فوالله " وأرى أنّ القَسَم هو الرابط الآخر ، لأنه في ضوء ما وبّخهم عليه من خذلان وتمرّد وعصيان للأوامر وتباطؤ في تلبية دعوة الجهاد أقسَم الإمام " لئن جاء يومي ـ وليأتينّي ـ لَيُفَرّقَنّ بيني وبينكم " ولا يقتصر الأمر على الخلاص منهم بالموت بل يذهب إلى الإمعان في توبيخهم قائلاً " وأنا لصحبتكم قالٍ ، وبكم غير كثير " فقسمه عليه السلام يربط تخاذلهم بالحال التي سيكون عليها عند موته بأنه مبغض لصحبتهم لأنها صحبةٌ لا تزيده عدداً ولا قوة ٠ فالمعنى ما زال متماسكاً يرتبط بعضه ببعض ،هذا فضلاً عن استعمال الإمام ـ عليه السلام أداة الربط (**الواو**) في عطفه شبه الجملة (بيني) على نظيرتها (بينكم) و عطف الجملة الإسمية (**وأنا لصحبتكم قالٍ**) على نظيرتها (وبكم غيرُ كثيرٍ) ٠

٥ـ المقطع الخامس :

وهو يرتبط بما قبله برابط معنوي هو التعجّب في قوله " **أنتم** " وهو قول بليغ يتعجّب فيه ممّا هم عليه من حال ، وهذا التعجب ينتقل به إلى مجموعة من الأسئلة التي لا يريد لها جواباً بل يريد الإمعان في التوبيخ بعبارات قاسية في تأثيرها في نفوسهم بقوله " أما دين يجمعكم؟ ولا حميّة تشحذكم ؟ " ٠

وهذا المقطع كسابقه يرتبط معنوياً بما قبله من مقاطع ، لأنّ الخطبة وحدة معنوية متماسكة يرتبط بعضها ببعض لذا جاء التعجب مما سبق من خذلانهم وامتناعهم من الإنخراط في صفوف المجاهدين متصلاً بما قبله، وهو حلقة اتصال بما بعده من الأسئلة التوبيخيّة ٠والسؤالان اللذان ذكرتهما من مجموعة أسئلة هذا المقطع يتسقان في البنية ويتكافآن في مكونات بنية كلّ منهما ، وهذا الإتساق يسهّل ربطهما بما قبلهما ،كما أن الإنتقال من التعجب إلى الإستفهام مع امتداد خيوط المعنى منوّعاً في نبرات الكلام يمنح المقطع تنوّعاً متماسكاً ومؤثراً في المخاطب ٠ ويردف الإمام هذين السؤالين التوبيخيين بسؤال يحمل معنى التعجب أيضاً يرتبط بهما بأداة الربط (الواو مسبوقة بالهمزة قائلاً " أوليس عجباً ٠٠٠" وفي هذا السؤال مجموعة من الجمل المتشابهة والمترابطة بأداة ظاهرة أوبأداة مستغنى عنها، فجملة (ليس عجباً أنّ معاوية) **مرتبطة بجملة** (أنّ واسمها وخبرها) لكون اسم ليس (أنّ معاوية) يتضمن أداة ربط هي (أنّ) لذا يأتي خبر أنّ(يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه) مكملاً لمعنى جملة (ليس)، وفي هذا الخبر نعتان لمفعول مستغنى عن ذكره ، مرتبطان بغير أداة عطف هما (الجفاة الطَغَام) والتقدير الجفاة و الطغام ، ثمّ يربط جملة (يتّبعونه) بالفاء ، كما يربط الاسمين المنفيين (غير معونة) و(لا عطاء) بالواو ٠وأحدث الإمام ـ عليه السلام ربطاً وتنويعاً في الصياغة وبنية الجملتين في آن واحد وفيه تظهر براعة الإمام في دقة التعبير فهو يربط الجملة الاسمية التي خبرها مستغنى عن ذكره دلت عليه الجملة الفعلية (يدعو) ،بجملة اسمية خبرها مستغنى عن ذكره دلّت عليه الجملة الفعلية (أدعوكم) ٠وترتبط بالفعل (أدعوكم) جملة تدلّ على الحال عُطف على خبرها اسم مناظر للخبر " وأنتم تريكة الإسلام ، وبقية الناس " كما ارتبط الفعل (أدعوكم) نفسه برابط آخر هو التعلّق المعنوي (إلى المعونة) وهو متماسك بعاطف هو(الواو) مع (طائفة من العطاء)٠ وزيادة على ما ذكرنا من ارتباطات لجملة (وأنا أدعوكم) نجدها ترتبط بجملة (فتفرقون) وجملة (تختلفون) بكل من الفاء والواو ٠ ويختم هذا المقطع بتأكيدين يرتبطان معنوياً بما أورده من تعجب من أفعالهم المخزية ليظهر لهم موقفه من تلك الأفعال :

الأول : قوله ـ عليه السلام ـ " إنّه لايخرج إليكم من أمري رضى ؛ فترضونه ولا سخط فتجتمعون عليه "

والآخر: معطوف على الأول بالواو في قوله " وإنّ أحبّ ما أنا لاقٍ إليّ الموت " ويلاحظ في التاكيدين عدد من الروابط الداخلية منها تعلق حروف المعاني بأفعالها ومنها الفاء والواو ، ومنها الوصل في (ما أنا لاقٍ)٠وهي روابط قد وثّقت عرى الإتصال بين مكونات الجمل وأشباهها ٠

المقطع السادس :

وفيه سلسلة من الجمل المتناسقة والمتجانسة والمتماسكة بحرف (الواو) وقد ربط حرف التحقيق (قد) هذا المقطع بما سبقه في قوله " (قد دارستكم الكتاب)، و (فاتحتكم الحجاج) و(عرّفتكم ما أنكرتم) و(سوغتكم ما مججتم) " فالأفعال كلها ماضية مسندة إلى ضمير المتكلم ومتعدية إلى مفعول واحد ، ويلاحظ في الجملتين الثالثة والرابعة وجود ربط بين المفعول وصلته بالوصل في (ما أنكرتم) وما (مججتم) لما بين الموصول وصلته من ترابط وتكميل في المعنى ٠

وختم الإمام عيه السلام خطبته هذه بجمل عجيبة الصياغة تبدو في ظاهرها أنها منفصلة أو مستأنفة ، غير أنّها مرتبطة كل الإرتباط بما قبلها لأن الجمل المتناسقة التي سبقتها هي تذكير بما سعى إليه الإمام ـ عليه السلام ـ لتوعيتهم وتوجيههم وتحذيرهم مما سدروا فيه من غيّ فجاء قوله في الخاتمة خلاصة لتجربته معهم في عبارة تعبّر عن حالهم " لوكان الأعمى يلحظُ ،أو النائم يستيقظ ،وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية ، ومؤدبهم ابن النابغة " فقوله " لو كان الأعمى ٠٠٠"معناه أنّ تلك الحجج والنصائح لاتجدي معكم نفعاً لأنّكم قومٌ عميٌ لا ترون ،وأنتم نيامٌ لا تستيقظون" فارتبط الكلام بما قبله في المعنى وذلك بالإنتقال من السياق الخبري في الجمل الفعلية السابقة لهذا القول ، إلى الكلام الإنشائي الذي يبدأ بـ (لو) ٠ ثمّ ربط الكلام بجملة عجيبة الصياغة جاءت بهيأة الصيغة الثانية للتعجب (أفعل به) ولكنها متصلة بما بعدها(أقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية) وجملة (قائدهم معاوية) جملة اسمية ارتبطت بما قبلها بغير أداة ربط وهي امتداد لجملة التعجب٠ والمعنى لم ينقطع بانتهاء جملة التعجب لأنّ التعجب من كون معاوية قائدهم لم يكن هو المتعجب منه وحده بل عطف على المتعجب منه جملة أخرى (مؤدبهم ابن النابغة) ٠ ولو تأملنا بخاتمة الخطبة وربطنا ها بمفتتح الخطبة (أحمد الله على ما قضى من أمرٍ وقدّر من فعل وعلى ابتلائي بكم ٠٠٠) نجد أنّ الربط واضح حيث يختم بذكر موازنة بين قوم تعجب من جهلهم بالله يقودهم معاوية ويؤدبهم عمرو بن العاص ، وقوم أتاح الله لهم الإمام علي ليؤدبهم ويعرض لهم الحجج ويعطيهم البراهين ، لكنهم كانوا كالنيام الذين لا يستيقظون والعُمي الذين لا يبصرون.

ومما تقدّم نستخلص أنّ وسائل الربط والتماسك كثيرة منها الربط بحروف العطف المختلفة الظاهرة والمستغنى عن ذكرها ، والربط بأسماء الوصل وحروفه ، والربط بتغيير المعنى مع امتداده ، سواء بالدعاء أو القسم أو التعجب أو الإستفهام وغيرها من المعاني ، والربط بالضمائر ، وأسماء الإشارة ، والتكرار وغيرها من وسائل الربط التي يتحكم بها المنشئ بحسب المعاني المقصودة لذا أقول إن وضع ضوابط لربط مكونات النص وتماسكه أمر لا يمكن حصره في قواعد أو ضوابط محدودة وسنجد في نصوص أخرى روابط غير ما ذكرنا ٠

وتظهر روابط التماسك في النصالسابق موضحة في المخطط الآتي:

احمد الله على
- ما قضى من أمرٍ
- وقدر من فعل
- وابتلائي بكم

أيّها الفرقة التي
- اذا امرتُ لم تُطع
- اذا دعوتُ لم تُجب
  - إنْ أُمهلتم خضتم
  - إنْ حُوربتم خرتم
  - إنْ إجتمع الناس على إمامطَعَنتم
  - وان أُحِبتم الى مشاقة نكصْتُم

لا ابا لغيركم ما تنتظرون
- لنصركم والجهاد على حقكم
- الموتَ او الذلّ

فوالله لئن جاء يومي – وليأتيّنّي ليُفرقنّ بيني وبينكم
- وانا لصحبتكم قالٍ وبكم غير كثيرٍ

لله انتم
- أمَا دينٌ يجمعكم
- ولا حميةٌ تشحذكم

أوَليس عجباً
- أنّ معاوية ← يدعو الجفاة الطغام ← فيتبعونه
- وانا ادعوكم ← وانتم
  - تريكة الاسلام
  - وبقية الناس

الى المعونة وطائفه من العطاء
- فتفرقون عني
- وتختلفون علي

انه لايخرج إليكم من أمري
- رضى ← فترضونه
- ولا سخط ← فتجتمعون عليه

وإنّ احبّ ما انا لاقٍ اليّ الموتُ
- قد دارستكم الكتب
- وفاتحتكم الحجاج
- وعرفتكم ما انكرتم
- وسوغتكم ما مججتم

لوكان الاعمى يلحظ او النائم يستيقظ

واقربُ بقومٍ من الجهل بالله
- قائدهم معاوية
- ومؤدبهم ابن النابغة

المبحث الثالث: الظواهر البنيويّة في النصّ النفسيّ

تتضح لمن يدرس النص المعبر عن أحاسيس الإمام ومشاعره، وما أراد به التأثير في نفوس سامعيه ، وتوجيههم الوجهة التي أرادها الله لعباده،جملة من الظواهر الأسلوبية التي مازت خطبه ورسائله ، وجعلتها نسيجاً متفرّداً ، يعرفه مَن خبر أساليب المفوّهين والخطباء ، وهذه الظواهر أذكرها تمثيلاً وانتقاءً لأنّي أدرك أنّ نسج خطب الإمام ، ورسائله نسج متميز في الكلام العربي أستطيع وصفها بالقمة الثالثة بعد نسج القرآن الكريم ، ونسج أحاديث نبي الهدى محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ، لذا سأذكر عدداً من هذه الظواهر أهمّها :

١ـ التفصيل ، أوالإمتداد البنيويّ للجملة في النصّ النفسيّ وسائر نصوص نهج البلاغة :

وهي ظاهرة واضحة بل طاغية في أكثر النصوص ، وفيها تظهر براعة الإمام ـ عليه السلام ـ في تفريع الكلام وتنويع أساليب التعبير عن المعنى الواحد بجمل متقاربة في المعنى ، متباينة في المبنى ، ولقد وجدت في ذلك عجباً يبهر الدارسين لما يمتلكه الإمام ـ عليه السلام ـ من قدرة على تشقيق المعاني وتفريعها وإيجاد القنوات التعبيرية المتشعبة لتنقل تلك المعاني مع خصوصية كلّ منها في مخاطبة السامع والتأثير فيه ٠ وتلك هبة من الله لا تتأتى لكل البشر ،ذلك لأنّ التنويع في بنى الجمل يتطلب خزيناً من المفردات لا ينضب ، وقدرة على التنويع في بنى الأساليب بأسانيد مختلفة ، وعبقرية في المقاربة بين البنى وذلك لا يقوى عليه إلاّ بليغ مفوّه وكثيراً ما يستعين الإمام ـ عليه السلام ـ بحروف العطف في تواصل هذا الإمتداد في الجمل نحو قوله عليه السلام في إحدى خطبه:

" فاعتصموا بتقوى الله ، فإنّ لها حبلاً وثيقاً عروته ، ومعقلاً منيعاً ذروته ، وبادروا الموت في غمراته ، وامهدوا له قبل حلوله ،وأعدّوا له قبل نزوله ، فإنّ الغاية القيامة ، وكفى بذلك واعظاً لمن عقل ، ومعتبراً لمن جهل ، وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الأرماس ، وشدّة الإبلاس ،وهول المطلع ،وروعات الفزع ،واختلاف الأضلاع ، واستكاك الأسماع ، وظلمة اللحد ، وخيفة الوعد ، وغمّ الضريح ، وردم الصفيح ،فالله الله فإنّ الدنيا ماضيةٌ بكم على سَنَن ، وأنتم والساعةُ في قَرَنٍ ،وكأنّها قد جاءت بأشراطها ، وأزفتْ بإفراطها ووقفت بكم على سراطها ، وكأنّها قد أشرفت بزلازلها ، وأناخت بكلاكلها ، وانصرمت الدنيا بأهلها ، وأخرجتهم من حضنها ، فكانت كيوم مضى ، أوشهر انقضى ، وصار جديدها رثّاً وسمينها غثّاً في موقف ضَنْك المقام ، وأمور مشتبهة عظام ونار شديدٍ كَلَبُها عالٍ لَجَبُها ، ساطعُ لهبُها متغيظٌ زفيرها ، متأجج سعيرها بعيد خمودها ، ذاك وَقودها مخيف وعيدها ٠٠٠٠ "(٣٧)

في هذا المقطع تجد الإمام ـ عليه السلام ـ يفرّع المعاني ويتوّع في الجمل والألفاظ على النحو الآتي :

١ ـ أخذ من معنى التقوى ما يرتبط بها (فإنّ لها حبلاً وثيقاً عروته ـــــ ومعقلاً منيعاً ذروته)

٢ ـ ويخاطب أهل التقوى والمسلمين ـــــــ (بادروا الموت في غمراته) ـــ (وامهدوا له قبل حلوله) ـــ (وأعدّوا له قبل نزوله)

٣ ـ وفرّع من كون القيامة هي الغاية ـــ(وكفى بذلك واعظاً لمن عقل) ـــ (ومعتبراً لمن جهل)

٤ ـ وذكرهم بأن قبل بلوغ تلك الغاية (القيامة) مصاعبَ وأهوالاً ، منها : (ضيق الأرماس) ـــ (وشدة الإبلاس) وـــ (وهول المطلع) ـــ (روعات الفزع) ـــ(إختلاف الأضلاع) ـــ (استكاك الأسماع) ـــ (ظلمة اللحد) ـــ (خيفة الوعد) ـــ (غمّ الضريح) ـــ (ردم الصفيح) ذ

٥ ـ وبنى على تقوى الله : (الدنيا ماضية بكم على سَنَن) ـــ(وأنتم والساعة في قرن)

٦ ـ ثم يأتي بأداة التشبيه (كأن) ليتولد من دخولها على الساعة المكنى عنها ، أكثر من معنى : (جاءت بأشراطها) ـــ(وأزفت بإفراطها)، (وقفت بكم على سراطها)٠

ثم يكرر (كأنّ) وضمير الساعة (قد أشرفت بزلزالها) ـــ(وأناخت بكلاكلها) ـــ(وانصرمت الدنيا بأهلها) ـــ(وأخرجتهم من حضنها)

٧ ـ ويأتي بالفعل الناقص (كان) ويسنده إلى الدنيا ليكون خبرها (كيومٍ مضى) ـــ (شهر انقضى)

ويأتي بفعل ناقص آخر (صار)ليكون اسمها وخبرها (جديدُها رثّاً) ـــ (سمينُها غثّاً) ٠

٨ ـ ثم يصف الموقف بأنه (ضنْك المقام) ـــ والأمور(مشتبهة عظام) ويعطف عليها لفظة (نار) يصفها بأنّها : (شديدٌ كلبُها) ـــ(عالٍ لجبها) ـــ (ساطع لهبها) ـــــ (متغيظ زفيرها) ـــــ (متأجج سعيرها) ـــــ (بعيد خمودها) ـــ (ذاكٍ وقودها) ـــــ (مخيف وعيدها)

والإمام ـ عليه السلام ـ يجانس بين المتفرعات في نهاياتها ، أو صياغاتها ، أو نوع اللفظ فيها وذلك بتفريع الجمل الفعلية من نظيرتها ، والاسمية من مثيلتها ، وما فيها متعلقات من المصادر يتفرع منها ما في نظيراتها من المصادر ، وما فيها نوع من المشتقات يتفرع منها ما فيه مشتقات ، حتى ترى زخارف متجانسة و متناظرة ومتداخلة ، الفرع يتمم الأصل ، والأصل ينفتح على الفروع فيمدّها بالمعاني المتشعبة وكل خطب الإمام ورسائله تنحى هذا المنحى من غير استثناء .

وفي خطبته القاصعة تجد أنظمة متقنة التفرّع ، مثيرة للإعجاب تبهر السامع بما ينتظمها من شعب معنوية تجري في قنوات لفظية متجانسة ومنها قوله عليه السلام::

" حتى إذا انقادت له الجامحة منكم ، واستحكمت الطماعيّةُ منه فيكم ، فنجمت الحالُ من السرّ الخفيّ على الأمر الجليّ ، استفحلَ سلطانه عليكم ، ودلف بجنوده نحوكم ، فأقحموكم ولّجات الذلّ ، وأوطؤوكم إثخانَ الجراحة طعناً في عيونكم ، وحزّاً في حلوقكم ، ودقّاً لمناخركم ، وقصداً لمقاتلكم ، وسوقاً بخزائم القهر إلى النار المُعدّة ، فأصبح أعظمَ في دينكم جرحاً ، وأورى في دنياكم قدْحاً من الذين أصبحتم لهم مناصبين ، وعليهم متألّبين ، فاجعلوا عليه حدّكم وله جدّكم . " (٣٨)

فانظر إلى جملة الشرط بـ (إذا) و جملة جوابه تجد كلاًّ منهما مكونة من فعل معطوف عليه فعل آخر ، (انقادت له ...) و(استحكمت ...) وأتبعهما بما نجم عن ذلك (فنجمت الحال ...) فالأفعال ماضية اتصلت بتاء التأنيث و جاء الجواب متفرعاً كذلك إلى فروع مترابطة بالعطف بالواو(استفحل سلطانه عليكم) (ودلف بجنوده نحوكم) وفيه الفعلان ماضيان أيضاً (استفحل) و(دلف) . ونجم عن ذلك أمران أحدهما مرتبط بالآخر (فأقحموكم ...) و (أوطؤوكم ...) وهما فعلان بصيغة الماضي المسند إلى جماعة الغائبين .وتتفرع من الجملة الثانية متعلقات متناظرة وهي مصادر منصوبة تلحقها حروف جر ومجروراتها (طعناً في عيونكم) و (حزّاً في حلوقكم) و(دقّاً لمناخركم) و (قصداً لمقاتلكم) و(سوقاً بخزائم القهر إلى النار المعدّة) . والمصادر المتفرعة كلها منصوبة و بوزن واحد هو (فَعْل) .

وانظر إلى ما استنبطه الإمام ـ عليه السلام ـ من فعل ابليس وأعوانه في المخاطبين في قولهـ عليه السلام ـ (فأصْبح) مفرّعاً في خبرها الذي جاء على وزن اسم التفضيل (أفعَل) (أعظمَ في دينكم جرحاً) ـــــ و(أورى في دنياكم قدحاً) وجاء في كل من الجملتين بعد اسم التفضيل (جار ومجرور) ومصدر على وزن (فَعْل) . وشفّق الإمام عليه السلام خبر (أصبح)وما تعلّق به من جار ومجرور في صلة الموصول (لهم مناصبين) , (وعليهم متألبين) وفي كلّ منهما جاء الخبر على صيغة اسم الفاعل . ثم يأمرهم بأن يجعلوا(عليه حدّكم) و(له جدّكم) وفي كلّ منهما جاء مفعول جعل على وزن (فَعْل)

.وما ذكرته هنا امثلة مختصرة وأرى أنّ هذه الظاهرة في بنى نهج البلاغة لايستقصي تفرعاتها إلا بحث مستقل لما فيه من تنظيرات ورصد لأوجه هذه الإمتدادات ، لأن الإمتداد هنا ليس مترادفات بل هي امتدادات لفظية ومعنوية وأسلوبية تتناظر في شكلها وتتباين في دلالاتها ، ويأخذ كل فرع خصوصية معنوية ينبغي استجلاؤها .

٢ ـ التكرار و التتابع : يكرر الإمام ـ عليه السلام ـ الألفاظ والعبارات والجمل لتأكيد ما يدعو إليه ، ويُنفذ ما في نفسه إلى نفوس المخاطبين بقوة وحماس وحين يرى الناس ينأون عن القرآن ويبتعدون عنه يقول " العملَ العملَ ،ثم النهايةَ النهايةَ ،والإستقامةَ الإستقامةَ ، ثم الصبرَ الصبرَ ، والورعَ الورعَ إنّ لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم ، وإنّ لكم عَلَماً فاهتدوا بعَلَمكم .. (٣٩) وكثيراً ما يكرر لفظ الجلالة كقوله عليه السلام" فالله الله في عاجل البغي " (٤٠) وقوله وهو ينازع سكرات الموت " والله الله في الأيتام ،فلا تُغبّوا أفواههم ، ولا يضيعوا بحضرتكم ، والله الله في جيرانكم فإنّهم وصيّةُ نبيّكم ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنّه سيُوَرّثهم ، والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيرُكم ، والله الله في الصلاة فإنّها عمود دينكم ، والله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن تُرك لم تُناظَروا . والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله " (٤١) .

والتكرار هنا فن قولي يراد به الإغراء والحث على ما يغرى به يعتمد تأكيد اللفظ بتكراره .

وقد يكرر الإمام للتحذير سواء بذكر لفظ التحذير أو بذكر المحذّر منه نحو قوله عليه السلام " فامهَدْ لقَدَمِك ، وقدّم ليومك فالحذَرَ الحذَرَ أيّها المستمِعُ ، والجِدَّ الجِدَّ أيّها الغافلُ {ولا ينبئك مثلُ خبيرٍ }(فاطر ١٤). (٤٢) وقد يفرغ الإمام ما في صدره من ألم يحدثه سلوك الناس ويؤكد ما هو صحيح بتكراره فالمؤمنون أحباؤه وأقرب الناس إلى نفسه يشدد على ذكرهم بتكرار اللفظ الدال عليهم نحو قوله عليه السلام " إنّ البهائم همّها بطونُها ،وإنّ السباع همّها العدوانُ على غيرها ، وإنّ النساء همّهُنّ زينةُ الحياة الدنيا والفساد فيها . إنّ المؤمنين مستكينون . إنّ المؤمنين مشفقون .إنّ المؤمنين خائفون . " (٤٣) فالمؤمنون هم مرتكز ما أراد الإمام تغليبه على كلّ أجناس الكائنات في السلوك وحسن الفعل لأنّ المؤمنين هم الذين يخضعون لأحكام الله وإرادته لا يجدون في نفوسهم علوّاً ولا شموخاً ، وهم الذين يشفقون على أنفسهم من أدنى خطأ أو زلة أو ذنب ، وهم الذين يخافون من أنفسهم أن تودي بهم إلى الهلكة والعصيان ، ويخشون غضب الله فيعدّون كل عمل يقومون به في سبيل الله غير كاف لوفاء آلاء الله عليه .وقد قال الإمام عنهم في مكان آخر " فهم لأنفسهم مُتّهمون ، ومن أعمالهم مشفقون " (٤٤) .

وقد لا يكون التكرار عند الإمام ـ عليه السلام ـ لغرض التوكيد بل لتشقيق المعاني وتوليدها فيولد من آخر الجملة جملة أخري وفي ذلك تبرز براعة الإمام ـ عليه السلام ـ في بناء نصوصه فبعد ما يفرغ ما في نفسه من ألم من سلوك من عصوه في حرب الجمل يقول "سبيل أبلجُ المنهاج ، أنورُ السراج ،فبالإيمان يُستدَلُّ على الصالحات ، وبالصالحات يُستَدَلُّ على الإيمان ،، وبالإيمان يعمرُ العِلمُ ، وبالعِلمِ يُرهَبُ الموتُ، وبالموت تُختَمُ الدنيا ، وبالدنيا تُحرَزُ الآخرة " (٤٥) ألا ترى هذه السلسلة من تتابع الألفاظ والجمل وارتباط بعضها ببعض ، فالإيمان دليل على الأعمال الصالحات لأن ديدن المؤمن هو السعي للعمل الصالح وإذا سمعت بأعمال صالحات فثمة مؤمنون عملوها وتلك حلقة في الترابط ،وبالإيمان نفسه يكون العلم عامراً في صدور المؤمنين ومتدفقاً من أفواههم وبالعلم يعرف الله وخلائقه وتعرف الأشياء كلها والعالِم هو أول العارفين بالحياة الدنيا والآخرة ،ويعرف المؤمنون ما للموت من رهبة في النفوس فيبادر المؤمن أجله بعمله كما أكد الإمام ذلك أكثر من مرة وتتصل سلسلة هذه التتابعات لأنّ الموت خاتمة الحياة الدنيا وبدء عالم البرزخ وعالم الآخرة فمن عرف ذلك عمل لدنياه كما يعمل لأخرته، لأنه يعلم أنّ الموت حتم لابدّ منه وأنّ الحياة الدنيا طريق العبور إلى الآخرة ، فيحرز المؤمن العالم بمصيره جزاء أعماله الصالحات فيكون ثوابه الجنة ، أرأيت مثل هذا التتابع المعنوي المترابط في سلسلة من التكرار المولّد بعضه بعضاً .

ويوظف الإمام الاسم المكرر للبدء بأفكار يربطها بأفكار سابقة فبعد أن يقدّم لما سيؤول إليه حال من عصوه وهجروا الدين في قوله عليه السلام " ألا فتوقعوا ما يكون من إدبار أموركم ، وانقطاع وصلكم ، واستعمال صغاركم " جعل فيما تلا ذلك من كلام ، اسم الإشارة (ذاك) المكرر حلقة وصل بين تلك المقدمة وما يليها من المقاطع في قوله

١ـ " ذاك حيثُ تكون ضربة السيف على المؤمن أهونَ من الدرهمِ من حِلّه ."

٢ ـ ذاك حيثُ يكون المُعطَى أعظمَ أجراً من المُعطِي "

٣ ـ ذاك حيث تسكرون من غير شراب ،بل من النعمة والنعيم ، وتحلفون من غير اضطرار ، وتكذبون من غير إحراج .

٤ـ ذلك إذا عضّكم البلاء كما يعضّ القَتَبُ غاربَ البعير .

فهذا التكرار في اسم الإشارة (ذاك) ثم يعقبه ما يدل على الإشارة إلى البعيد (ذلك)هو إحكام لتتابع الجمل وربطها ربطاً محكماً كما أشرنا في المبحث السابق .

٣ ـ التنويع في أبنية التراكيب :

من يتأمّل في تراكيب النصوص في نهج البلاغة يجد قدرة عظيمة على تنويع أنمط التركيب ، والتغيير في أبنيتها بحسب المعاني المتغيّرة ، وتغيّر الحال والمقام، وتغيّر متطلبات التاثير النفسي في المخاطبين

إذ ينتقل الإمام ـ عليه السلام ـ من معنى إلى آخر ومن صياغة إلى اخرى، ويجدالمتأمل هذا التلوين في الأبنية في أنساق منتظمة ومترابطة تكوّن نظماً مؤثراً ،ونسيجاً متماسكاً، ولا شك في أنّ هذا التنوّع في أبنية التراكيب يمنحها جمالاً وطراوة وحلاوة تملك الألباب ، وتسحر الأسماع فلو أنعمنا النظر في كلامه ـ عليه السلام ـ يردّ فيه على من حثّه على معاقبة قوم ممن أجلبَ على عثمان فقال

" يا أخوتاهُ إنّي لستُ أجهلُ ما تعلمون ، ولكنّ كيف لي بقوّةٍ والقومُ المجلبون على حدّ شوكتهم، يملكوننا ولا نملكُهُم . وهاهم هؤلاءِ قد ثارتْ معهم عُبدانُكم ، والتفّتْ إليهم أعرابُكم ، وهم خلالَكم ، يسومونكم ما شاؤوا .وهل ترونَ موضعاً للقُدرةِ على شيءٍ تُريدونه ، إنّ هذا الأمرَ أمرُ جاهليّة . وإنّ لهؤلاءِ القومِ مادةً . إنّ الناسَ من هذا الأمر ـ إذا حُرّكَ ـ على أمور :فرقةٌ ترى ما ترون ، وفرقةٌ ترى ما لا ترون ، وفرقةٌ لا ترى هذا ولا ذاك فاصبروا حتى يهدأ الناسُ ، وتقع القلوب مواقعها ، وتُؤخَذَ الحقوقُ مُسمِحَةً فاهدؤوا عني ، وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ، ولا تفعلوا فَعْلَةً تضعضعُ قوةً ، وتُسقطُ مُنَّةً ، وتورثُ وهناً وذلّةً . وسأمسك الأمرَ ما استمسكَ . وإذا لم أجدْ بدّاً فآخرُ الدواء الكي . " (٤٦)

الكلام فيه حسرة وألم من ارتفاع صوت الباطل على ألسنة المجلبين ، وفيهم الرعاع والجهلة والأعراب ومن لا يعرف من الدين إلاّ الاسم وهو يعلم أنّ ذلك في غير حقّ ولا عدل بل هي نعرة جاهلية وعادات استهجنها الإسلام ولكنه لا يملك القوة لردعها فيكبت حسرته منتظراً تغيّر الحال فالأجواء النفسية مشحونة بالغيظ والغضب ولكن المقام يقتضي غير ذلك .

وقد عبّر الإمام بجمل متنوّعة تحمل هذه المشاعر والأحاسيس ويمكن ملاحظة ذلك فيما يأتي :

١ ـ يبدأ الإمام ـ عليه السلام ـ كلامه بنداء جاء بصيغة الندبة ليعبّر عن ذلك الألم (يا أخوتاه) وهو استعمال ينبغي أن يستفاد منه في دراسة استعمالات النداء .وذلك بإلحاق هاء السكت وقلب ياء المتكلم إلى ألف .

٢ ـ ينتقل إلى توكيد حقيقة علم الإمام ـ عليه السلام ـ بما يجري في دولة المسلمين ، وينفي عن نفسه الجهل ، فقال في جملة مركبة تجمع بين التوكيد لمجمل الحدث ونفي خبر(إنّ) بجملة نافية ،وذلك باستخدام الفعل الناقص الجامد (ليس) و جاء خبر الفعل الناقص جملة فعلية ،مع ربطها بجملة الصلة الفعلية في قوله ـ عليه السلام ـ " إنّي لست أجهل ما تعلمون " وتفصيلها على النحو الآتي :

إنّ (التوكيدية) ـــ ليس (النافية) ـــــخبر ليس (جملة فعلية " أجهل ") ـــ صلة الموصول جملة فعلية (تعلمون) .

٣ ـ استدرك الإمام ـ عليه السلام بـ (لكنّ المخفّفة) وجعل الإستدراك نقطة انتقال لمعنى آخر هو الإستفهام الذي أراد به النفي (كيف لي بقوّة) وهي تعني من أين أأتي بقوة أعاقبهم بها وبيّن السبب بجملة تبين حال المجلبين " والقوم المجلبون على حدّ شوكتهم يملكوننا ولانملكهم " وهذه جملة اسميّة تفيد الحال تكونت من مبتدأ خبره جملة فعلية مثبتة " يملكوننا "

عطفت عليها جملة فعلية منفية " ولا نملكهم "فالتنوع واضح في هذه الأبنية : استدراك ـــــ استفهام ـــــ جملة حال اسمية متنوعة المكونات ـــــ خبر المبتدأ جملة فعلية مثبتة ـــــ عطفت عليها جملة فعلية منفية .

٤ - وفي الجملة الإشارية التي جاءت بصيغة الجملة الاسمية " وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم " ورد خبر المبتدأ جملة فعلية فعلها ماض "قد ثارت ..." وعطفت عليها جملة نظيرة لها في البناء ، أتبعهما بجملة حالية بصيغة الجملة الاسمية " وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا " وصلة الموصول جملة فعلية فعلها ماضٍ .

٥- يعود الإمام - عليه السلام - إلى جملة الإستفهام التي يريد بها النفي وهي جملة فعليةً تتضمن جملة فعلية مناظرة تصف النكرة (شيء) .

٦- يذكر الإمام - عليه السلام - حقائق تستوجب التأكيد منها :

أ - جملة التوكيد "إنّ هذا الأمر أمرُ جاهليّة .

ب - وإنّ لهؤلاء القوم مادّةً .

ج - إنّ الناس من هذا الأمر - إذاحُزّك - على أمور .

ثم يوزّع الناس على ثلاث فرَق يعبر عن كل منها بجملة اسميّة فيها مبتدأ والخبر مستغنى عن ذكر تقديره (منهم) ويكون المبتدأ في كل منها موصوفاً بجملة فعليّة متعلقها اسم موصول في الجملتين الأولى والثانية ، صلة كلّ منهما جملة فعليّة وردت في الأولى مثبتة ، وفي الثانية منفية ، وخلت الثالثة من المتعلق الموصول ، واستبدل باسم اشارة عطف على آخر منفي ، على النحو الآتي :

أ - " فرقة ترى ما ترون .

ب - وفرقة ترى ما لا ترون .

ج - وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك .

٧ - انتقل الكلام إلى صيغة الأمر المسند إلى جماعة المخاطبين " فاصبروا " ووضع غاية لصبرهم عبّر عنه بصيغ الإستقبال في أفعل مضارعة :

أ - حتى تهدأ الناس .

ب - وتقع القلوب مواقعها .

ج - وتؤخذ الحقوق مسْمحة .

٨- يعود الكلام إلى صيغ الإنشاء الطلبي بصيغ الأمر والنهي ، حيث ورد الأمر في جملتين " فاهدؤوا عني " , " ولظروا ماذا يأتيكم به أمري " أمّا النهي فجاء في قوله - عليه السلام - " ولا تفعلوا فعلةً)

٩- وصف - عليه السلام - لفظة (فَعْلة) بثلاث جمل خبرية فعلية أفعالها مضارعة مسندة إلى ضمير الغائبة العائد على (فعلة)وهي :

أ - تضعضعُ قوّة ب - تسقط مُنّة ج - تورث وهناً وذلّة .

١٠ - ختم الكلام بجملتين الأولى دالة على الإستقبال " وسأسبك الأمر "ربطها بجملة ماضية تربطها أداة الوصل الحرفي (ما) وهو ما سمّاه النحويون بالحرف المصدري الظرفي . " ما استمسك " والأخرى شرطيّة فعل الشرط مضارع منفي بـ (لم) والجواب جملة اسميّة ربطها بجملة الشرط بالفاء " وإذا لم أجد بدّا فآخر الدواء الكيّ "

ومن هذا التحليل البنيوي لأبنية هذا النص ندرك القدرة العظيمة على تنويع الأبنية للتعبير عن المعاني المختلفة من نداء ، واستفهام ،ونفي ،ونهي ،وأمر ، وتوكيد ، واستدراك ، وغيرها من المعاني في مسالك تعبيرية دقيقة متماسكة ومتشابكة سواء بالوصف أو الوصل أو العطف أو الربط في الشرط ، وهذه المسالك التعبيرية تتنوع من مقطع إلى آخر وكأنها شبكة اتصالات إفهاميّة معبّرة يصعب إيجاد منافذها إلّا لمن خبر أساليب الإمام وحنكته التعبيرية التي تفوق الوصف .

وتظهر براعة الإمام عليه السلام في التنويع في الصياغة المحكمة للجمل الاسمية أو الجمل الاسمية وكأنك تتجول في روضة غناء تحفل بصفوف من الورد المتناسق الممتع في تنويع ألوان وروده . ففي وصفه للمتقين تجد صفوفاً من الجمل الاسمية تتبعها صفوف من الجمل الفعلية وهكذا يقول الإمام عليه السلام في وصف المتقين "فهم والجنّة كمن قد رأها فهم فيها منعّمُون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون . قلوبهم محزونةٌ ،وشرورهم مامونةٌ. وأجسادُهم نحيفةٌ ،، وحاجاتُهم خفيفةٌ، وأنفسُهم عفيفةٌ ." (٤٧) ثمّ يعقبها بجمل فعلية " صَبَروا أيّاماً قصيرةً، أعقَبَتْهُم راحةً طويلةً " ثم تلتهما جملة اسمية واحدة " تجارةٌ مُربحةٌ "، ثمّ تلتها جمل فعلية " يسّر ها لهم ربُّهم . أرادَتْهم الدنيا فلم يريدوها .وأسرَتْهم ففَدَوا أنفسَهم منها " ثمّ تلتها جمل اسميّة فجمل فعلية وهكذا تتابع الجمل متنوعة ومتباينة في بنيتها فهل كان هذا التباين مغايرة صوتية وبنيوية ؟ أقول لا بل جاءت المغايرة للتعبير عن معانٍ متباينة فالجمل الاسميّة عبرت عن ثبات الإيمان في نفوسهم واستقراره في ضمائرهم " فهم والجنةُ كمن قد رآها ، فهم فيها منعمون " تلك حقيقة ثابتة وراسخة في نفوسهم ،يدرك المتقون نعيم الجنة ويعرفون أوصافها فهم كمن رأى شيئاً بأم عينه ، وكذلك يعرفون النار فترتعد فرائصهم من مشهدها و يتصورون جحيمها وعذابها . الحزن مستقر في نفوسهم لأنهم في خشية من سوء أعمالهم ومن زلات ألسنتهم وهفوات عيونهم لذا يستمر حزنهم في كلّ وقت ، و(شرورهم مأمونة) لأنّ المتقين يتقون الله في كل صغيرة وكبيرة ، ويضعون مخافة الله نصبَ أعينهم لذا صاروا بعيدين عما يسيء للناس في كلّ وقت فلا طمع في نفوسهم ولا رغبة في ملذات تدفعهم إلى الإتيان بالشر ، (وأجسادهم نحيفة) من سهر الليل قياماً وقعوداً يعبدون الله ، ويصومون النهار شكراً لله لذا صارت أجسامهم نحيفة لا يطمعون إلّا بما يقيم أودهم وهكذا الجمل الاسميّة الأخرى كلها تدلّ على الدوام و الإستمرار و الإعتياد

٠وانظر إلى الجمل الفعلية تجد أنّها عبّرت عن حالات التغيّر والحدوث (صبروا أيّاماً قصيرةً) ذلك لأنّ المتقين ينظرون إلى الحياة الدنيا وكأنها رحلة فيها المتاعب والأهوال التي تتكاثر في سني عمر المرء فصبروا على تلك المصائب وانتهت حياتهم فصار ماضياً انطوى بانطواء حياته لذا أشار إليه الإمام بصيغة الجملة الفعلية ،ومثلها (أرادتهم الدنيا فلم يريدوها) أي أغوتهم بمغرياتها من مال وجاه وملذات في شبابهم لكنهم انصرفوا عنها ، وعبّر عن ذلك بالفعل المضارع المنفي بـ(لم) للدلالة على الماضي ٠ وعطف عليها جملة مماثلة (وأسرتهم ففدوا أنفسَهم منها) أي أسرتهم بتلك المغريات ولكنهم دفعوا فدية الأسر بالصوم والصلاة وإتيان الأعمال الصالحة وكل ذلك في الزمن الماضي المنقضي ٠فالتنوع في بنية الجملة يعبّر عن تنوّع في المعاني

ويلاحظ في هذا النص وغيره أنّ الجمل تتباين في طولها وقصرها فلا يذكر الإمام ـ عليه السلام ـ أحياناً إلا الركنين الأساسيين المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل : نحو قوله عليه السلام ((قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ،وأجسادهم نحيفة) وتزيد الجملة أحياناً(أمّا الليلُ فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتّلونه ترتيلاً) وقوله عليه السلام من الجملة الفعلية (يبيت حذرا) و(يصبح فرحاً) ويقول أيضاً (إنْ استصعبتْ عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحبّ) (٤٨) ٠ وقد يأتي بمتعلقات مركّبة لاترقى إلى بنية الجملة التامة بحسب رأي النحويين كقوله عليه السلام " تراه (قريباً أمَلُه ، قليلاً زلله ، خاشعاً قلبُه ، قانعةً نفسُه ، منزوراً أكلُه ، سهلاً أمرُه، حريزاً دينُه، ميتةً شهوتُه، مكظوماً غيظه)(٤٩) ٠

وكان المتوقع أن يجري على هذا النط فيقول (مأمولاً خيرُه ، ومأموناً شرُه) غير أنّ الإمام عليه السلام عدل إلى الجملة التامة الاسميّة فقال "الخير منه مأمولٌ ، والشرّ منه مأمون " (٥٠) بغية التنويع في بنى الجمل ٠

٤ـ التطابق والتقابل في أبنية النصوص النفسيّة :

النسيج اللغويّ في الخطاب النفسيّ ينتقي الأبنية المؤثرة في نفوس المخاطبين ، ويجانس بين مكوناته ، ويقابل بينها مشابهة ومغايرة ، ويقارب بين الألفاظ لتكون أكثر تأثيراً ، وأقرب إلى مشاعر المخاطب ، ولقد امتازت نصوص نهج البلاغة عموماً ونصوصه النفسيّة خصوصاً بكثرة المقابلات الدلالية اللافتة للإنتباه ، ففي كل خطبة عشرات الوجوه التقابلية المعبّرة عن المعاني المتناظرة أو المتباينة ٠

ولإيضاح الوجوه التقابلية سأبدأ بذكر نص من نصوص نهج البلاغة يتحدث فيه عن التقوى وهي أحب شيء إلى نفسه ، ثم استنبط منه الوجوه التقابليّة ، وبيان أثرها في توجيه الخطاب النفسي قال الإمام ـ عليه السلام ـ

" فإنّ تقوى الله دواء داء قلوبكم ، وبصر عمى أفئدتكم ، وشفاء مرض أجسادكم ،، وصلاح فساد صدوركم ، وطهور دنس أنفسكم ، وجلاء عشا أبصاركم ،وأمنُ فزَع جأشكم ، وضياء سواد ظلمتكم ٠ فاجعلوا طاعة الله شعاراً دون دثاركم ، ودخيلاً دون شعاركم ، ، ولطيفاً بين أضلاعكم ، وأميراً فوق أموركم ، ومنهلاً لحين ورودِكم ، وشفيعاً لدرك طلِبَتِكم ، وجُنّةً ليوم فزعكم ، ومصابيح لبطون قبوركم ، وسَكناً لطول وحشتكم ، ونَفَساً لكَرَبِ مواطنكم ٠ فإنّ طاعة الله حرز من متالف مكتنفة ، ومخاوفَ متوقعةٍ ،وأوارِ نيرانٍ موقدةٍ ، فمَنْ أخذَ بالتقوى عزَبَت عنه الشدائدُ بعدَ دُنُوّها ،واحلولت له الأمور بعد مرارتها ، وانفرجت عنه الأمواجُ بعد تراكمِها ، وأسهلتْ له الصعابُ بعد إنصابها ، وهطلت عليه الكرامةُ بعد قحوطها ، وتحدّبتْ عليه الرحمةُ بعد نُفورها ، وتفجّرت عليه النِعَمُ بعدَ نضوبها ، ووبَلتْ عليه البركةُ بعدَ إرذاذِها ٠" (٥١) ٠

هذا المقطع من الخطبة يتألف من عدد قليل من الجمل التامة ، و كثير من الجمل الناقصة المعنى وعدد من الأخبار المعطوفة أو من جواب شرط معطوف عليه بما يتمم معناه ، غير أنّ العجيب في هذا المقطع كثرة التقابل بالمغايرة بصنعة مثيرة للعجب فكل لفظة اقترنت بما يقابلها في الضد أو المخالفة ،أو المشابهة ولو استعرضنا تلك الألفاظ لوجدنا أنها تستغرق المقطع كلّه ،وهذا جدول بتلك الألفاظ والعلاقات التي تربط الواحدة بالأخرى :

التقوى : دواء ـــ داء ـــ (علاقة السببية والمسببية)

بصر ـــ عمى ـــ (علاقة الضد)

شفاء ـــ مرض ـــ (علاقة المخالفة)

صلاح ـــ فساد ـــ (علاقة الضد)

طهور ـــ دنس ـــ (علاقة الضد)

جلاء ـــ عشا ـــ(علاقة المخالفة)

أمن ـــ فزع ـــ (علاقة الضد)

ضياء ـــ سواد ـــ (علاقة المخالفة)

ولاحظ العلاقة بين (المنهل) و(الورود) فالمنهل (موضع الورود) ٠

و (الشفيع) وسيلة لـ (درك) الطِلبة ٠

و(الجُنة) هي (الوقاية) من الفزع ٠

و(المصابيح) نور، وما في (بطون القبور)ظلام ٠(العلاقة علاقة مخالفة)

و(السكن) هو كلّ ما سكنتَ إليه ـــ و الوحشة هي الخلو والإقفار وذهاب الناس عن المرء ٠(العلاقة علاقة مخالفة)

والنَفَس وهو ما يفرّج عن الكرب ٠ (العلاقة علاقة سببية)

والحرز:هو الموضع الحصين وهو ما يحمي من المتالف والمخاوف٠(العلاقة علاقة سببية)

عزبت عنه الشدائد : أي بعدت ـــ دنوها (علاقة الضد)٠
واحلولوت من الحلاوة ـــــ مرارتها (علاقة الضد)٠
وانفرجت الأمواج خلاف تراكمت الأمواج ٠(العلاقة علاقة مخالفة)
وأسهلت له الصعاب صارت سهلة والسهولة خلاف الصعوبة وأسهلت خلاف أنصبت أي أتعبت ٠(العلاقة علاقة مخالفة)
والهطول خلاف القحط ٠(العلاقة علاقة مخالفة)
والحَدَب : الحنوّ والقرب والحدب خلاف الفور٠ (العلاقة علاقة مخالفة)
وتفجّرت عيون النعم خلاف نضوبها ٠(العلاقة علاقة مخالفة)
والوابل: المطر الشديد وهو خلاف المطر إذا كان رذاذاً ٠(العلاقة علاقة مخالفة) ٠

وإنّما ذكرت هذه العلاقات في هذا المقطع من النص لأبيّن قدرة الإمام عليه السلام ـ على ربط الألفاظ بما يخالفها أو يكون من سببها أو يرادفها وهي في غير هذا النص كثيرة وقد وجدنا أنّه يوردها في كل جملة في تنويع في الدلالة يشير إلى قابلية هائلة على وضع الألفاظ في مواضع تمنحها الجمال وقوة التأثير في النفس وهذا الرصد للألفاظ والعلاقات التي تربط بعضها ببعض هو ما يسمى في الدراسات اللسانية (المجالات أو الحقول الدلالية)
وانظر إلى تجانس وضع الألفاظ في موضع ما يقاربها أو يرادفها في انسجام وتقارب وتكامل قال الإمام ـ عليه السلام " بين قتيلٍ مطلول ، وخائفٍ مستجير ٠ يُختَلُون بعَقْدِ الأيمان ، بغرور الإيمان ، فلا تكونوا أنصاب الفِتَن ، وأعلامَ البِدَع ، والزموا ما عُقِدَ عليه حبلُ الجماعة ، وبُنيت عليه أركان الطاعة ٠ واقدموا على الله مظلومين ولا تقدمُوا عليه ظالمين ٠واتقوا مدارجَ الشيطَان ، ومهابطَ العدوان ٠ولا تَدْخِلوا بطونَكم لُعَقَ الحرام فإنّكم بعين مَنْ حَرّمَ عليكم المعصيةَ ، وسهّلَ لكم سبيل الطاعة (٥٢)
في النص ألفاظ تقاربت في البنية واختلفت في المعنى فلفظة (الأيمان) تقارب في بنيتها لفظة (الإيمان) ولكنّ اللفظتين مختلفتان في المعنى فلو تأمّلت في جملة الإمام عليه السلام (يُختَلون بعَقْدِ الأيمان، بغرور الإيمان) لوجدت أنّ الإمام يحذّر المؤمنين من أن يخدعهم المنافقون والمخادعون بأنْ يقسموا لهم بأيمان يعقدونها من غير أن يلتزموا بها ، وأن يُخدَعوا بما يُظهر لهم المنافقون من مظاهر الإيمان بالله في الظاهر وهم يكتمون الكفر٠فالأيمان هي الأقسام التي يقسم بها على العهود والمواثيق ، فهي جمع للفظة (يمين) في حين لفظة (إيمان) هي مصدر الفعل (آمَنَ) فهي دالة على الإفراد ٠ ولو تأملنا في لفظتين أخريين هما (أنصاب) و(أعلام) لوجدنا أنّهما مختلفتان في البنية متقاربتان في المعنى فالأنصاب جمع النَّصْب ،وهو ما نُصب ليُقْصَد ، فهو كالعلامة ، والأعلام جمع (عَلَم) والعَلَم ما يوضع ليُعلم بوجود قِرَى فهما في المعنى واحد ولكن لفظيهما مختلفان ٠ وهذا واضح في كلام الإمام ـ عليه السلام ـ فلا تكونوا أنصاب الفِتَن ،وأعلام البِدع) ، وتأمّل في لفظتين أخريين هما (مدارج) (ومهابط) والمدرجة هي اسم مكان بمعنى المذهب والمسلك ٠ و(المهبط) اسم مكان بمعنى النزول ، وقد قارب الإمام ـ عليه السلام ـ بين الإستعمالين (واتقوا مدارجَ الشيطان ، ومهابطَ العدوان) فهو يدعوهم إلى اتقاء مسالك الشيطان التي تُضلّ البشر لأنها تنزلهم منازل الكفر والعدوان فالقصد واحد والصيغة واحدة وإن اختلف اللفظان ٠أمّا لفظتا (المعصية) و(الطاعة) فهما متباينتان لفظاً ومتضادتان في المعنى وقد جاء استعمالهما مطمئناً للنفوس مهدئاً لروعة القلوب " فإنّكم بعين مَن حرّم عليكم المعصية ،وسهّل لكم سبيل الطاعة "،الله جلّ جلاله منع المعصية وجعلها محرّمة ، في حين مهّد للناس وسهّل طرق الطاعة ، وشتان ما بين التحريم والتسهيل٠
وفي نهاية المطاف أرى أنّ بنية الخطاب النفسي في نهج البلاغة قد سبكت من لدن بليغ عارف بأسرار العربية فأحسن سبكها ، وأجاد صياغتها فنحت منحى علوياً خاصاً يمتلك كل أسباب الجود والرصانة في البناء اللغوي البليغ أخذ من القرآن الكريم كثيراً من سماته ، وانتهل من الحديث النبوي الشرف بعض خصائصه ، فجاء بناءً نسيج وحده ٠

الهوامش:

١ـ شرح نهج البلاغة ٤/ ٣٠٠ ٠
٢ـ المصدر نفسه ٣٤١/٤ ٠
٣ ـ المصدر نفسه٤٣٨/٢ ٠
٤ـ المصدر نفسه٢٩٧/١٠ ٠
٥ـ المصدرنفسه١٨/ ٢٤٣ ٠
٦ـ نهج البلاغة(محمد عبده)١٥٧/٢ ٠
٧ـ المصدر نفسه ١٥٧/٢ ٠
٨ ـ مبادئ اللسانيات ٣٥٧ ٠
٩ـ نهج البلاغة (محمد عبده)٧٠/١ ٠
١٠ـ المصدر نفسه ٣ /١١ـ١٢ ٠
١١ـ المصدر نفسه ٦٥/٣ ـ٦٦ ٠
١٢ـ المصدر نفسه١٨٤/٢ ٠
١٣ـ المصدر نفسه ١٢١/٣ ٠
١٤ـالمصدر نفسه١٢٢/٣ ٠

١٥ـالمصدر نفسه ١٨٣/٢ ٠
١٦ـ كتاب العين ٢٢٣/١ ٠
١٧ـنهج البلاغة (محمد عبده)١٠٩/١ـ١١٠ ٠
١٨ـ المختارمن صحاح اللغة ؟؟؟؟؟؟؟؟؟
١٩ـ نهج البلاغة (محمد عبده) ٤٦/٣ـ٤٧ ٠
٢٠ـ منهاج البلغاء ٢٠٠ ٠
٢١ـ لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ٥ ٠
٢٢ـ نهج البلاغة (محمد عبده)٣٧/٢ـ ٣٨ ٠
٢٣ـالمصدر نفسه٢١٠/١ ٠
٢٤ـ المصدر نفسه ٢١٠/١ـ٢١١ ٠
٢٥ـ المصدر نفسه ١٥١/٢ ٠
٢٦ـ المصدر نفسه ٢١١/١ ٠
٢٧ـ المصدر نفسه٢٢٢/١ ٠
٢٨ـ المقتضي ٦٩/٢ ، وينظر مغني اللبيب٣٨٥/٢ـ٣٨٦ ،وشرح ابن عقيل١٠٤/٣ ٠
٢٩ـ نهج البلاغة (محمد عبده)٢٢٢/١ ٠
٣٠ـ المصدر نفسه ١٨٥/١ ٠
٣١ـ المصدر نفسه١٤٤/١ـ١٤٥ ٠
٣٢ـ التبيين عن مذاهب النحويين ٢٩٥ ٠
٣٣ـ نهج البلاغة ١١٢/٢ ٠
٣٤ـ الخطاب النفسي في القرآن الكريم ٢٠٦ـ ٢٠٨ ٠
٣٥ـنهج البلاغة (محمدعبده) ١٥٠/١
٣٦ـالمصدر نفسه١/ ٢٠٠ـ٢٠١ ٠
٣٧ـالمصدر نفسه ١١٢/٢ ٠
٣٨ ـالمصدر نفسه ١٧/٣ ٠
٣٩ـ بلاغة الخطاب وعلم النص ٣٣٩ـ ٣٤٠ ٠
٤٠ـينظر نحو النص ٢٠٩ـ٢٢٤ ٠
٤١ـ نهج البلاغة (محمد عبده)١٠٠/٢ـ١٠١ ٠
٤٢ـالمصدر نفسه ٢/ ١٣٠ـ ١٣٢ ٠
٤٣ـ المصدر نفسه ١٤٠/٢ ٠
٤٤ـ المصدر نفسه ٩٢/٢ ٠
٤٥ـ المصدر نفسه ١٤٨/٢ ٠
٤٦ ـالمصدر نفسه ٣/ ٧٧ ٠
٤٧ ـالمصدر نفسه ٤٢/٢ ٠
٤٨ـالمصدر نفسه ٤٣/٢ ٠
٤٩ـ المصدر نفسه ١٦٢/٢ ٠
٥٠ ـالمصدر نفسه ٤٨/٢ ٠
٥١ـ المصدر نفسه ٨٠/٢ـ٨١ ٠
٥٢ـ المصدر نفسه ١٦١/٢ ٠
٥٣ـالمصدر نفسه ١٦١/٢ـ ١٦٣ ٠
٥٤ ـ المصدر نفسه ٢/ ١٦٣ ٠
٥٥ـ المصدر نفسه ٢/ ١٦٣ ٠
٥٦ ـ المصدر نفسه ١٧٣/٢ـ١٧٤ ٠
٥٧ ـالمصدر نفسه ٣٩/٢ ٠

مصادر البحث ومراجعه

ـ القرآن الكريم

ـ **بلاغة الخطاب وعلم النص** : د صلاح فضل ، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان ١٩٦٦ **الطبعة الأولى** ٠

ـ التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين : **أبو البقاء العكبري** (ت٦١٦ هـ) تحقيق ودراسة الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، دار الغرب الإسلامي بيروت ـ لبنان ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م **الطبعة الأولى** ٠

ـالخطاب النفسي في القرآن الكريم : أ٠د كريم حسين ناصح الخالدي ، دار صفاء للطباعة **والنشر ، عمّان الأردن ٢٠٠٧م.**

ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري (ت٧٦٩ هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ،١٩٦٢م ، **الطبعة الثالثة عشرة** ٠

ـ كتاب العين : أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) تحقيق الدكتور مهدي المخزومي ، الدكتور ابراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠ م وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ٠

ـ لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب : **محمد خطابي المركز الثقافي العربي** ، ٢٠٠٦ م الطبعة الثانية ، الدار البيضاء **المغرب** ٠

ـمبادئ اللسانيات: **د أحمد محمد قدور ، دار الفكر ٢٠٠٨ ، دمشق** ٠

ـ **المختار من صحاح اللغة** :محمد محيي الدين عبد الحميد ،و محمد عبد اللطيف السبكي ، مطبعة الإستقامة / **الطبعة الرابعة** / القاهرة ٠

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ،: أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني ، القاهرة ٠

ـ **المقتضب** : المبرد ،أبو العباس محمد بن يزيد (ت٢٨٥هـ) تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب / بيروت ٠

ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء : القرطاجني ،حازم بن محمد بن حسن (ت٦٨٤ هـ)تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ن **تونس ١٩٦٦م** ٠

ـ نحو النص ، نقد النظرية ٠٠٠وبناء أخرى : د عمر محمد أبو خرمة ، عالم الكتب الحديث ، اربد ، الأردن ، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م٠

ـ نهج البلاغة : مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ،شرح الشيخ محمد عبده، **الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات** / بيروت و دار مكتبة كرم / **دمشق**٠